عزت القمحاوي

غرفة ترى النيل

رواية

دار الحوار

غرفة ترى النيل

- **غرفة ترى النيل**
- عزت القمحاوي

- الطبعة الأولى **2005**
- النـــاشـــر: ***دار الحـــوار للنشـــر والتوزيـــع***

  اللاذقية ــ سورية ــ ص.ب: 1018

  هاتف وفاكس: 422339 41 963

  البريد الإلكتروني: soleman@scs-net.org

تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار

انهض إنك لست بميت

"كتاب الخروج إلى النهار"

1

ليس في الإدراك أي نبل.

وقد عشت مدركا لكل شئ دون أن أفعل شيئاً. والآن ، حتى وأنا أعرف أني أموت لا أستطيع أن أستل سكيناً وأغمده في موضع الألم فأخرسه إلى الأبد.

هذه مسخرة!

أستسلم لما لا أريد بدافع الإنهاك ليس إلا. حتى هذه اللحظة لم أمتلك نبل الفعل. سأترك نفسي لهم يستكملون تحكمهم إلى النهاية، يقلبونني كخرقة مستمتعاً بالضعف، بلذة الألم التي أتمنى الآن أن أصفها في رواية تكون عوناً للضعفاء أمثالي

ممن لا يمتلكون القدرة على الفعل؛ قدرة تحديد ساعة ومكان موتهم طالما لا يملكون دفعه.

لذة الألم؟!

نعم هذه السكاكين التي تقطع في بطني الآن وتوصلني إلى نشوة الإنهاك الكامل، تترك جسدي المتألم هذا ضعيفاً وسيداً وتضع الآخرين في موضع الخدم، بهذه الدرجة من السماحة أو الحنق. "لا" الشجاعة التي عجز العقل عن قولها في وجوه كل السادة يعلنها جسدي الآن بكل طلاقة. هذه الخرقة التي نالت أخيرا رضى أن تكون مخدومة وقد عرفت من قبل كل ضروب الخدمة وكل ضروب الألم دون لذة.

لا! لم تكن دائماً دون مسرة؛ فهذه اللذة التي أستشعرها الآن نلتها عندما كنت صبياً يرتدي القميص على اللحم دون سروال، فأسي بفأس أبي سواء بسواء، نعمل في قراريطنا القليلة أو أجيرين لدى أحدهم لأعود في المساء، أنام واللقمة الخشنة في فمي، وأحس كلما اقتربت من الصحو لذة تبخر الألم وتبخر حرارة النهار من أطرافي التي أكاد لا أحس اتصالها بجسمي. فيما بعد بدأت الأحلام تخلق من تلك الحرارة اللذيذة أجساداً تداعبني وتمنحني لذة تبليل سروالي، أتذكرها في الصباح وأتذكر ملامساتها التي تقودني إلى راحة انسياب السائل اللزج فيما يشبه لذة تسرب المخدر من أطرافي الآن.

انتهت اللعبة؛ العالم يبدو منفياً ومرغماً على الوقوف هنالك على بعد خطوات من باب العبد المحرر لتوه. وعقلي هذا الذي

وقف من الجسد موقف النخّاس وأسلمه لاستعباد الآخرين باسم الضرورة أو الواجب طوال ستين عاماً ينحني الآن ذليلاً في خدمته؛ مجتهداً في مضاعفة إفراز الأدرنالين الذي يُعظِّم الخفة بحيث يبدو الجسد المسجى في خفة مركب، تهدهده الأحلام دون حاجة إلى أفيون بودلير أو خمر أبي نواس.

جسدي شبه الطائر يكتشف ألفة هـذه الغرفـة المحتقـرة. بنصف وعي تتلمس عيني الكليلة خطوط الـزمن. تـشكيلات **الضوء** والعتمة على السقف تبدو ظلاً لذلك الحيوان الخرافـي قادماً من سطح القمر؛ موطنه الأصلي في زمن طفولة الخيال. منذ متى حقاً لم يتيسر لعيني شباك على السماء لترى القمر؟ إن كان هنالك لم يزل بالقرد العجوز الذي كنت أراه دائماً علـى صفحته يحمل على كتفه جذعاً يتدلى منه دلوا الماء الأبديان؟!

القمر! الذكرى تبدد جدران الغرفة مثل شمعة تتداعى وتسيل. يتهادى السرير على سطح العجينة اللينة من أصوات المتألمين حولي في أسرّتهم كالمتشبثين بألواح أخيرة من سفينة حطمها الموج. موجة نعاس يجلبها غرق الأعصاب في المورفين، فموجة ألم تدفع بأعشاب وطحالب اليقظة إلى الشاطئ، وأولد من جديد، لا أكاد أرى صديقي الواقف بالممر بينما أنزلق إلى بيت الطفولة.. بيت الشتاء المحاصر بمطر يحيل شوارع القرية إلى طبقة من الغرين اللزج تجعل الخروج مستحيلاً، وتبدو الدور المتساندة على بعضها البعض سفناً ألزمتها النوة البقاء في المرفأ، لا يعرف ركاب إحداها عن

الآخرين إلا ما يشي به دخان الكوانين، بينما يبدو الجار الذي يطلب قليلا من الخشب أو حصوة ملح كائناً من كوكب آخر ساقته مصادفة مدهشة إلى هذه القرية وإلى هذا البيت بالذات. موجة جديدة من يقظة الألم تعيد الرغبة في الاشتباك مع الأجمل في الحياة؛ يُنمِّل الجلد بحثاً عن الأصابع المشتهاة. لماذا لم يخزِّن الجسد من ملامساتها ما يكفيه؟! وحشة الأصابع الحبيبة، هي فقط الجانب الخالي من الرحمة في عتمة حرية ابتدعها الألم.

"العناية المركزة".

اللافتة هي كل ما يشير إلى خصوصية الغرفة الكبيرة التي تضم خمسة أسرّة لمحتضرين نزعوا كمامات الأكسجين التي لا تعمل وأزاحتها أذرعهم العصبية بعيداً. السرير السادس احتله عيسى استسلاماً للإنهاك أو امتثالاً لقرار طبيب الطوارئ الذي أعلن بحسم أن قرار التوجه إلى المستشفى بيد المريض، أما قرار الانصراف فبأمر الطبيب. بعد أن تصفح صور الأشعة السابقة أمر بإيداعه غرفة العناية لمتابعة حالته قبل عمل فحوص جديدة. "**لا نستطيع أن نصف علاجاً بناء على تحاليل لم نجرها نحن**" أجاب الطبيب على سؤال رفعت، ولكنه أعطى عيسى حقنة مخدرة خففت من تقلص وجهه الكاظم للألم.

في الممر وقف رفعت ملوحاً أمام الفتحة الكاشفة للغرفة التي تضم جوانبها بقايا مسننة من زجاج مترب. أشار عيسى له بالانصراف، ورد عليه بإشارة أخرى تعني أنه سيعود

باكراً. قاده السرداب الطويل إلى البوابة التي تفصلها عن الشارع مساحة جرداء لابد أنها كانت حديقة في التخطيط المبدئي. استقل تاكسي مخلفاً وراءه مستشفى التأمين الصحي، وقد اختلطت داخله كالهارب من معركة، مشاعر الفرح بالخزي.

لم يعرف بحالة عيسى إلا منذ شهر واحد عندما انهارت مقاومته للآلام، وفوجئ ذات ليلة بصراخ روز في التليفون "**ألست صديقه؟! تعال خذه لم أعد أحتمل**". بمشقة ساقه إلى العيادات ومعامل التحليل الخاصة التي استنفدت ما تلقاه من مكافأة في نهاية خدمته. حاول إقناعه باستغلال حقه التأميني دون جدوى ولكن الآلام هي التي تولت إقناعه أخيراً.

واصل المخدر زحفه في رأس عيسى المجهد الذي استسلم لعذوبة نوم لم يعرفه منذ أيام. لم يدر كم مر من الوقت، لكنه قدر أنها عدة ساعات، لأن الصمت في الخارج كان مصمتاً عندما بدأ يحس بإيقاعات الأنين المتناغم للمحتضرين بجواره تسحبه بطيئاً إلى اليقظة. في الضوء الخافت حوله تبين للمرة الأولى قذارة كيس المرتبة الجلدي المعرق بالدم الناشف، ولطخ الصدأ والوسخ البادية في حديد السرير. أخذ يلم أطرافه متأففاً من ملامسة الجلد الصناعي البارد الدبق، ثنى رجليه داخل البالطو الأخضر الذي أجبروه على ارتدائه.

فجأة انفلق صمت الممر بجلبة عربة لم تلبث أن دخلت الغرفة تدفعها ممرضة متختخة، يتفصد البالطو المترب اللون الذي ترتديه فوق الكتل الرجراجة في الصدر والجنبين والمؤخرة الضخمة. وراءها دخل طبيب شاب أخبر عيسى أنه سيتعرض لعملية بسيطة لشفط الدم من معدته. بحركة آلية تحسس بطنه الذي يواصل انتفاخه التدريجي منذ أسابيع. وكان القرف لا الخوف أول إحساسه عندما رأى الأنبوب وفكر في عدد الأجواف التي دخلها من قبل. ابتلع ريقه الذي تجمع سريعاً مستسلماً لهما وقد شرعا فوراً في إدخال أنبوب بلاستيكي من فمه. أخذ الأنبوب يحفر بعنف في بلعومه متعثراً ومضايقاً تنفسه. أبدى عيسى أقصى درجات التحمل، لكنه لم يتمالك نفسه عندما شعر بروحه تنتزع مع خبطات الأنبوب العمياء فصرخ صرخة تنتمي إلى أقصى إحساسات غريزة الحياة بدائية، ونفضهما هارباً من سريره.

لم تدعه الممرضة يهرب. سدت باب الغرفة أمام دهشة العيون المذعورة فوق أسرّتها، وأطلقت نداءها مستدعية ثلاث ممرضات أخريات حملنه معها إلى سريره حيث يقف الطبيب الشاب متمسكاً بالأنبوب، معاوداً المحاولة بكل ما أمكنه من حذر مستمعاً لتوجيهات الممرضة التي بدت صاحبة سلطة عليه.

استسلم عيسى مستدعياً كل طاقته على الاحتمال حتى أنهى الطبيب زحلقة الأنبوب بتعثر أقل هذه المرة، ثم بدأ في زرع

أنبوبين أقل تخانة في فتحتي أنفه محكماً حولهما بشريط لاصق، وبدأت الممرضة اللحيمة في فتح محبس الأكسجين لكن الأنبوبة على ما يبدو كانت فارغة. شعر عيسى بالاختناق ولم يكن قادراً أو مضطراً هذه المرة للصراخ، فأمام تحول لونه إلى الأزرق قفز الطبيب هارباً، بينما نزعت الممرضة بثبات أنبوبي الأكسجين كما سحبت أنبوب المعدة، وتركته منهكاً متألماً من جوفه المتهيج. بعد مدة بدأ الألم يتطاير ويحل محله ثقل المخدر حتى انزلق إلى النوم مرة أخرى.

تضببت عينا رفعت بالدموع عندما رأى في الصباح التهاب أنف عيسى والسجحات في شفتيه بينما كان يحكي ما حدث بالأمس مصراً على أنه كان حلماً. تركه وذهب إلى مكتب مدير المستشفى، قدم بطاقته الصحفية لواحدة من السكرتيرات الثلاث. دخلت مباشرة وعادت لتطلب منه الانتظار دقائق. رحب به المدير، قال إن كاتباً كبيراً مثل عيسى لا يحتاج إلى توصية. مرر رفعت هذه المجاملة اللطيفة لأن عيسى في الواقع لم يكتب شيئاً؛ اكتفى بالعمل في قسم الصياغة بجريدة اليمين الجاهل، كما يصفها هو، يضع العناوين والمقدمات الجيدة لما يكتبه الآخرون ولم يوقع باسمه أبداً. حتى شهور قليلة مضت كان لديه إمكانيات مؤسسة صحفية تستطيع أن تنفق عليه في المستشفيات الخاصة، ولكنه بعد أن خرج إلى المعاش لم يعد أمامه سوى التأمين الحكومي.

استدعى المدير طبيباً سأله عن الحالة وانتهى الأمر بنقله إلى غرفة عادية منفردة، بعد التعهد بدفع الفرق بين السرير والغرفة، على أن يبدءوا في الغد بعمل التحليلات.

لم تكن الغرفة الموصى عليها أسوأ من زنزانة. ومع توصية المدير بالاهتمام كانت هناك إمكانية مرور طبيب كل يوم وحقنة مخدرة كلما استدعت الحالة، ومع ذلك اتصلت روز برفعت في منتصف الليل تخبره أن عيسى عاد هارباً من المستشفى.

فكر رفعت في اللجوء سراً إلى طلب مساعدة رئيس تحرير الصحيفة رغم علمه بأنه يكره عيسى، فهو لا يزال يعاني من الاسم الذي خلعه عليه وصار أشهر من اسمه الحقيقي.

2

وحدك من يعني لك هذا الموت شيئاً. حتى المرأة التي ساكنته خمسة وثلاثين عاما نامت وأغلقت تليفونها. فتشت ذاكرتك عمن يمكن إبلاغه بموت عيسى. من عساه يصاحبك في رحلة توديعه الأخيرة. طلبت الجريدة. رد عليك أحدهم. صوتك ليس واضحاً. أخذت تصيح، أجابك أخيراً: لا إله إلا الله! سأبلغ الزملاء أنت صديقه؟ البقية في حياتك. لم يعرض أن يأتي ولم يسأل عن مكان للعزاء. أغلقت تليفونك. كدت تطل من الشباك لتشتم سائق التاكسي الذي يحاذيك. كدت تقول له إن عيسى قد مات ليخفف من صوت المغني القبيح الذي صار موضة لدى السائقين هذه الأيام. لكنك تراجعت. ماذا سيفهم

السائق؟ وحدك من يعني لك موت عيسى شيئاً. سيعفون أنفسهم بخبر من سطرين. ستون عاماً تبددت يا عيسى في سطرين وربما صورة صغيرة تعود فيها شاباً، لأنها الصورة التي سيجدونها لك، سينزعونها من ملفك الذي استقرت فيه منذ يوم التحاقك بالعمل.

هل عرف الموت شخصاً وحيداً مثله ؟ لكن ماذا يفيد لو كانت السيارات بركابها من الرجال والنساء المتعطرات في انتظاره؟

السيارات في تطاحنها الاعتيادي على الكورنيش. والتاكسي الذي يتلازم زحفه مع سيارتكم رفع سائقه الصوت إلى أقصى درجة. خدك في كفك تتأرجح وقد استندت بكوعك على الصندوق حيث فضّلت البقاء بجوار صديقك حتى اللحظة الأخيرة، وتركت المقعد بجوار السائق خالياً. فجأة صرخت فرامل السيارة التي فشلت في تفادي الصدام بأخرى أمامها. اصطدم جنبك بحد الصندوق. تكتم ألمك الذي يتزايد فتعري خصرك وترى مكان الكدمة المسود. ماذا حدث لعيسى الآن؟ هل تألم هو الأخر من ارتطامه ؟ السائق اختار هذا الطريق الطويل المزدحم. "الزراعي أفضل لأن خضرة الزرع تؤخر العذاب". قال بحسم ولم تعارضه لأنه بدا مطمئناً لما يعلم، وبدوت أمامه متردداً فاستسلمت بدافع الإنهاك أو بدافع حبك لصديقك، على أمل أن يكون ما يقوله السائق صحيحاً. الألم لا يتراجع والطريق تضيق وتتعرج كلما ابتعدتم عن القاهرة.

السيارات تتناقص لصالح الجرارات الزراعية. الحمير بأحمالها تظهر بغتة وتجعلك دائم التيقظ لوقفات السيارة الفجائية. القرية التي وصلتها أخيراً مختلفة تماماً عن تلك التي زرتها ذات مرة مع عيسى منذ أكثر من عشرين سنة. هل هذه حقاً "العــش" ؟ دور الطين التي كنت تعرفها حلت محلهــا عمــارات عاليــة بحوائط من الطوب العاري في ذات الحارات التي بدت أكثــر ضيقاً وشبه مظلمة ومختنقة تحت الشرفات المتقابلة التي تكــاد تتلامس. الناس لم تتغير كثيراً فيما يبدو، الأجــساد الــشاحبة نفسها والوجوه المتقلة بخطوط حفرها الزمن بتأن واطمئنان لا تشبه إلا دور الماضي وشــقوق الأرض العطــشى. حملــوا الصندوق من السيارة إلى الجامع. أفسح لك المتزاحمون علـــى الميضأة فتوضأت ووقفت تصلي بينهم بدافع الخجل أو الوجل دون أن تدري ما تفعل. نبهك أحدهم بلكزة من كوعه عنــدما هممت بالركوع. لم تصلِّ من قبل على ميت ولم تتوقع أن تفعل ولكنك صرت راضياً بسبب ما نال صديقك من دعــاء. مــن يعرف ماذا هنالك؟ طوفان من الرجــال والــشباب. النــساء متضامات في كومة كثيفة من الحداد. لبيبة أخته، هذه النحيفــة عرفتها من صوت نواحها أكثر مما تعرفت عليها من خــلال ذاكرتك المشوشة. لا يبدو أن هناك في القرية من لم يخــرج. جنازة لم تكن تتوقعها لعيسى. تستسلم لضغط الأجساد وراءك وتمضي كقشة يجرفها التيار. الله أكبر. الله اكبر .. امــش يــا عيسى. يا سبحان الله! يعرف بيته. فقط بيت أبيه الذي تنــازل

عن حقه فيه لأخته، لم يتغير. يبدو عشة بائسة بين العمـــارات من الجانبين. توقف الموكب تماماً وتعالى الصياح والتكبير مع نداءات الاسترضاء والتوسل إلى عيسى لكي يواصل المـــسير. اندفع رجال لتلقف الخشبة من حماليها الأربعة الذين بدا عليهم الإنهاك.

اندفعوا كأن الخشبة خفت بشكل مفاجئ وعاد الموكب إلـــى التقدم بصعوبة حتى بلغ المقبرة فوق تل مرتفع قليلاً يضع حداً للجهة الشرقية من القرية. خلف المقابر تمتـــد حقـــول الـــذرة بأوراقها الساكنة كأعلام منكسة. أنزلوه أمام المقبرة المفتوحة. كشفوا الغطاء الحريري الأخضر وحمله أربعة رجال. امتـــدت من داخل المقبرة أربعة أيد تلقفته وسحبته إلى الظلمة. علـــى باب المقبرة جلس عدد من الرجال المعممين يقرأون " تبـــارك الذي بيده الملك وهو على كل شئ قـــدير". دقـــائق وانطلـــق الصوت من داخل المقبرة. اثبت ثبتك الله .. اثبت ثبتك الله. عمَّ الصمت في الخارج، بينما عاد الصوت قادماً من عمق المقبرة لا يكاد يبين. يا عبد الله يأتيك ملكان يسألانك من ربك ؟ قـــل ربي الله لاإله إلا هو. من الرجل الذي بعث فيكم؟ قل محمـــد صلى الله عليه وسلم. ما دينك؟ قل الإسلام.

الرجال الذين تفرقوا بين القبور يقرءون الفاتحة على ذويهم بدءوا التقاطر باتجاه المقبرة، بدأت النساء اللاتي تكومن فـــي الخلف يقفن. " الفاتحة" طلبها الصوت بقوة من الداخل فارتفعت

الكفوف بالدعاء. دوّم سرب حمام مقترباً من الأرض وعاد سريعاً محلقاً بكثافة حجبت الشمس.

استقبل رفعت بحفاوة صبي المكوجي المعتوه الذي يزعج نومه كل صباح دون أن يحظى بغير التأنيب. "**منذ كم سنة أقول لك لا أريد؟!**" الجملة ذاتها، لكن دون ضيق هذه المرة، ودون أن يصفق الباب في وجهه، قالها مبتسماً وقد وقف حافياً مشعثاً في مواجهة الصبي المندهش. عاد إلى الطاولة الصغيرة بالقرب من الباب والتقط ثمرة كمثرى من طبق الفاكهة مد بها يده للصبي الذي تناولها وانصرف مرتاباً. أغلق رفعت الباب وعاد مغتبطاً يتأمل شاشة التليفون الأرضي، لم يجد الرقم الذي يطلبه منه عيسى، التقط التليفون المحمول ليتأكد منه أيضاً. اكتشف أنه نسي مرة أخرى كيف يستخرج الأرقام. أعاد التليفون إلى مكانه على الطاولة الصغيرة بجوار سلسلة مفاتيحه وحافظة نقوده. توجه إلى الحمام مترنماً ببدايات لحن لم يطاوعه. لم يجهد نفسه في محاولة العثور على بداية اللحن مقتنعاً بأن السبب لا يعود إلى ضعف ذاكرته وإنما إلى حركة الفرشاة في فمه التي أزاغت منه بداية اللحن وأوصلته إلى هذه الحالة من التنشيز.

غادر الحمَّام خفيفاً إلى المكتبة. استعرض علب الاسطوانات. توقف أمام اسطوانة فيفالدي "الفصول الأربعة" . التقطها. مسح الغبار عن العلبة البلاستيكية قبل أن يفتحها.

وضع الاسطوانة في الفونوجراف. أسقط الإبرة فوق بدايتها. انسابت الموسيقى بلمسات عذبة تدلك روحه.

توجه إلى الشباك مزيحاً الطبقة الكثيفة من الستارة جانباً، مبقياً على الدانتيلا البيضاء المصفرة فانحل الضوء الخفيف في غبشة الصالة متمازجاً معها حتى تبددت. اتخذ مكانه على الكرسي المجاور للطاولة الصغيرة التي تستقر فوقها أدوات القهوة. أشعل الموقد الكحولي ووضع فوقه الكنكة الجاهزة بالماء من الليل. فتح علبة البن بتأن كما يفعل دائماً. غرف ملعقة وشرع بإفراغها في الكنكة بحذر متحاشياً فيضان البن خارجها. أخذ يراقب أول أنين القهوة فوق اللهب مترقباً لحظة الفوران. خطفها من فوق النار في اللحظة المناسبة وصبها في الفنجان. قام إلى المكتبة يتخير كتاباً لقهوة الصباح كما يفعل دائماً. "لماذا لا يتم إلزام الناشرين بكتابة التحذيرات الواجبة على الكتب مثلما تلتزم شركات التبغ بتحذير المدخنين"؟ فكر عندما وقعت عيناه على رواية دينو بوتزاتي "**صحراء التتار**" التي تراجع عن قراءتها مراراً رغم اقتنائه ترجمة جديدة لها منذ عدة أسابيع "**لا يطاوعني قلبي أن أتركها، رغم أنني لست متأكداً من امتلاكي شجاعة إعادة قراءتها، ستكون مؤلمة في هذه السن**" قال لصاحب المكتبة الذي يخبئ له الجديد دائماً، عندما أخرجها له.

رفعها من مكانها على الإفريز حيث تركها منذ شرائها كعادته مع الكتب الجديدة التي تظل في مكان بارز حتى يقرأها

وبعدها يتقرر مصيرها. حشرها حشراً على أحد الرفوف. أحس باطمئنان من يحكم إغلاق باب القفص خلف وحش. سحب بدلا منها رواية همنجواي "الشيخ والبحر". منذ متى لم أقرأ هذه الرواية؟ تأمل الغلاف جيداً في طريقه إلى الكرسي كمن يتأمل وجه صديق غائب. هيجت رائحة الورق القديم أنفه، وأدخلته في نوبة عطس منعشة.

عندما انتهى من فنجانه كان قد أتى على خمسين صفحة، وبدأ في التثاؤب. وضع قاطع القراءة في الموضع الذي توقف عنده وطوى الكتاب. قام يجر رجليه عائداً إلى غرفة النوم. استلقى على السرير متحسساً جنبه رغم تأكده من عدم وجود الكدمة المؤلمة. تذكر بغبطة الصبي، كفه الصغيرة التي تمكنت بضغطة على زر جرس الباب من إزاحة حجر ثقيل عذّبه طوال الليل. استسلم لإحساس بالإنهاك. سريعاً راح في نوم جديد يظلله زهو المنتصر.

3

نعم.. أنا أبو جهل. وهو أبو العُريّف، ولكنه يموت الآن.
وصديقه الروائي المرموق يجلس في الخارج أمام سكرتاريتي
كحشرة. لن أسمح له بالدخول إلا بعد أن أسحق أعصابه.
الأمر ليس سهلاً، أنا رئيس تحرير، حقاً أنا رئيس تحرير!
ولدي مهامي التي عليّ أن أنجزها، نعم أنا رجل مسئول ولست
صعلوكاً أجلس في البارات مثلهم وأدعي أهمية زائفة. وراء
مكتبي الأبنوس ووسط الخضرة التي يرعاها مهندس زراعي
أبدو ملكاً. أنا ملك حقيقي. ليمت بفقر الدم في وجهه كما أراد
أو بالمرض الذي لن يدعه طويلاً . الوحيد الذي لم يهنئني يوم

تعييني، يستجديني الآن! غبي أنا وجاهل كما يقول؟ لأكن كذلك ولكن عجلة الحظ دارت.

حظ؟!

ليس حظاً، المسألة ببساطة أن كل فولة ولها كيّال، وأنا فولتي هي الرابحة في السوق اليوم؛ زبونها حاضر. أصبحت الكلمة لي، وما فعلته مع أبو العُريف وأمثاله من عواجيز الفرح هو العادي. ماذا كان سيصنع بي لو ركب هو أو أحد من أصدقائه الشيوعيين؟ كل متحكم يمسك مقصاً يغطي مساحة نفوذه ليقص الآخرين على قامته. وعلى الآخرين إما أن ينحنوا أو تطير رقابهم، أبو العُريف قصه المقص. كان بإمكانه أن يستمر، ولكنه نشّف دماغه فطارت، ألقيت به إلى الشارع ليستمتع بجلسات المتعطلين. أنا الملك هنا وكان بإمكاني أن أمدد له الخدمة. ها هو يستجدي العلاج اليوم وصديقه يجلس كحشرة رغم مظهر التأفف الذي يبديه كلما دخل أحدهم. يريد أن يبدو مضطراً؟! المنافق مثل صديقه يريد أن يقول: حسنة وأنا سيدك! ها هو في الكادر الثابت يبدو برماً وقد أجلسوه في المقعد المكشوف للكاميرا المضبوطة على وضع الزوم. نفس تأفف صديقه المختل الذي لم يعرف يوماً ماذا يريد. عاش كل هذه المدة لا معنا ولا ضدنا. رأى كل شيء دون أن يجرؤ على الاستقالة، رأى كيف كنا نختلق القصص عن أصدقائه الشيوعيين، المومسات اللاتي دفعنا لهن مقابل ادعاءات بأجنّة غير شرعية، أطباء النفس الذين شهدوا بجنون بعضهم،

المطلقة المزيفة الأفضل خيالاً من أصدقائه الروائيين وقد ألّفت بإحكام مشوق رواية عن جمعية لتبادل الزوجات وقصة هروبها من منزل الزوجية لرفضها الانخراط في ممارساتهم الشاذة.. لم يكن أبو العريف المتأفف يفعل سوى مط بوزه إلى مسافة أبعد وإطلاق نظرته الغاضبة، وبعد ذلك ينسى الأمر وينطلق ليقضي ليله في البارات مع المتعطلين من أمثاله، يبحثون ترتيبات الاحتفال بالثورة العالمية! ها هو صديقه المتأفف يحرر خده الناشف من دعامة أصابعه الرفيعة كمخارز السروجي. هئ! سقطت يده على مخدع الكرسي، سأتركه حتى تسقط رأسه نفسها، لماذا ينفخ بعداء هكذا؟! كأنه استعار قرف أبو العريف قبل أن يأتي؟ طظ! تأففهم لم يكن يوماً مخيفاً لأحد، وهم أنفسهم لم يعودوا يهمون أحداً، الجماعات الدينية أكلت الكاميرا منهم، لم يبق لهم سوى أوهام العظمة على وجوههم وملفات نائمة بهت حبرها في أرشيف الأمن. ومع ذلك.. يا الله! ماذا يريد أن يقول؟ أنا لم أكن أستحق؟ ماذا يعرف هو عن ليالي السهر الطويلة في الشتاء حتى انصراف الجميع انتظاراً لتجلي رئيس التحرير في التليفون بتكليف أفوز به لغياب الآخرين؟ ماذا يعرف عن مهانة الضرب بالشلوت والمطاردة بين المكاتب تحت تهديد الكرسي المرفوع على أدنى خطأ؟ هذا اللئيم المستريح على الحياد ماذا يعرف عن تأنيب الضمير من جراء اختلاق قصص لم تحدث، عن تزييف شهادات الأمهات اللاتي كن يقابلننا بالندب على أبنائهن المختفين ليرين في اليوم

التالي شهادات التبرؤ منهم التي لم يتفوهن بها، والإشادة بالنظام التي حلت محل السباب والدعاء بالموت. أستحق ما أنا فيه أم لا أستحق أيها المنافق الذي يحمل قرفه الخاص أو قرف صديقه المحتضر؟!

أدار السكرتير مقبض الباب بيد وبالأخرى لوحّ لرفعت آذناً بالدخول. مد رئيس التحرير يداً إسفنجية من خلف مكتبه دون أن يقف. "**أهلا**" تلقاها رفعت كشتيمة من شفة مقلوبة تبدو المنطقة الوحيدة القادرة على التعبير في وجه الرجل الذي اختفت ملامحه تحت طبقة كثيفة من لحم رجراج يصعب التحكم به. بتركيز أعاد رفعت عرض ظروف عيسى التي سبق أن لخصها للسكرتير. رن التليفون. "أوف!" زفر غاضباً بينما يجاهد ليرفع جفنه عن عين صغيرة غائصة في اللحم ليحدد مصدر الرنين قبل أن يتخير السماعة التي يرفعها. آه! **فهيم بيه؟!** قال بتهلل لم يستطع وجهه أن يعكسه. وتابع. **لا.. لا يا فهيم بيه، هذا أقل واجب. أظن بعد هذا الموضوع ستخرس ألسنة الأفاكين في صحف المعارضة. الرجل مع شيك المليون في يده يبتسم للكاميرا، ويعلن أن موت ابنه كان فرصة للتعرف إلى رجل عظيم مثلك! هي هئ .. العرص يجب أن يكون قد قال هذا فعلاً بعد استلام الشيك، إنه ليس أول أب يواصل الحياة بعد ابنه، لكنه سيعيش مع أولاده الباقين حياة مختلفة، تصور سيادتك كان ينوي إخراج ولد متفوق من**

الثانوية العامة! نعم بالضبط كما كتبنا. لأ طبعاً، سيادته مبسوط جداً لانتهاء المشكلة على هذا الشكل، طبعاً سيادته كان معي على التليفون منذ دقائق... التي كتبت الموضوع؟ نعم هي ذكية، ولكن أنا أضع يدي في كل شيء. أنت عارف.. هي هيء. لا لا، لكن ممكن تستعين بها كمستشارة إعلامية.. آه هي حلوة، لكن أرجوك يا فهيم بيه. هي هيء.. أنا؟ يعني.. تقدر تقول حاجة من حلاوة الروح.. أنا لم أقم إلا بالواجب، وأنت خيرك سابق.

أخذ جسده يهتز كما لو كان يتعرض لزغزغة من الطرف الآخر. شغل رفعت عينيه بتأمل الصور وشهادات التقدير المعلقة على الجدران متحاشياً النظر إليه مباشرة. خفض صوته وتابع: **اسمع يا فهيم بيه. كان عندنا رجل غلبان في ديسك الجرنال، نعم .. نعم صحفي لكن حالته تعبانة، طلع معاش وعنده يكفيك الشر! إيه رأيك لو تتولى أنت علاجه؟**

وبدأ في الهمس: **هكذا سنغطي تماماً على حكاية الولد القتيل، ما رأيك؟ .. أوكي .. هي التي ستكتب الموضوع، سوف تتصل بك، لكن أرجوك هي هئ!**

وضع السماعة وعاد آلياً إلى تجهمه ولم يكن بحاجة إلى أن يضيف شيئاً. كتب اسم المستشفى على ورقة " بكرة تكون المستشفى عندها خبر، إذا فيه أي شيء اطلبني" وقف رفعت متلقفاً الورقة المطوية من يده. خرجت كلمة الشكر مالحة من فمه، ومضى باتجاه الباب دون أن يلتفت وراءه.

4

لم يجرؤ أحدكما على النظر في وجه الآخر. السليم الذي هو أنت لم يقل شيئا للمريض الذي لم يطلب تفاصيل أكثر عن طبيعة المحسن المتبرع بعلاجه. ومن حسن الحظ أنه لا يقرأ الجريدة فلم ير الزفة التي أقاموها لتبرع رجل الأعمال بعلاج "مواطن". بخلوا عليه باعترافهم بأنه صحفي زميل فكان هذا إحسانهم الأخير. كأنكما حلمتما حلماً واحداً مزعجاً يعرف كلاكما تفاصيله ولا يجد الدافع لإعادة روايته. كأنه ليس أنت من دخل مكتب أبي جهل للمرة الأولى وجلس قدامه على المقعد المخسوف في الأرض وهو يتفحصك من فوق كرسيه المرتفع بفظاظة متعمدة منتفخاً مثل بالون، دون أن يلحظ أنك

تتجاوز بنظرتك ورم ذاته إلى المكتبة المضحكة خلفه بكتبها الوهمية من الجبس الملون سيء التنفيذ التي توهم المشاهدين بثقافته في لقاءات تليفزيونية يتلعثم فيها بكلام مقطع الأوصال. هذا الأبله! لم تقلب عليه المكتب الفخم المزينة حوافه بهدايا تذكارية ورزم من الكتب الحقيقية لا يبدو أنه فتحها مطلقا. هذا أيضا ليس عيسى الذي تعرف؛ عندما أخبرته بأنكما ستتوجهان إلى هذا المستشفى الفخم لم يستغرب، وكأن كل المرضى يأتون إلى هنا. إما أنه فقد القدرة على التركيز أو أن العفة التي أبقته بعيداً لم تشأ أن تنجرح. لو كان بإمكانك مساعدته ما تعرض كلاكما لهذا، ليس هناك من يرثك، ولكن الحظ الحسن لا يكتمل؛ فليس لديك أكثر من راتبك التقاعدي. وفي بلد كهذا لا تؤمن عائدات عشرين رواية إقامة يومين في هذا المستشفى الذي جعل عيسى سعيداً منذ بدأتما التردد على عياداته الخارجية. لا يزال يرتعب من القذارة. والمستشفى أنيق ونظيف بدرجة كانت كافية لتبديل حالته. أعادوا إجراء جميع الأشعات والتحاليل قبل أن يحددوا هذا الموعد مع الاستشاري.

لم يحاول الطبيب أن يتحلى بأية درجة من اللياقة، بل تعمد أن يتصرف بالفجاجة التي يحرص طلاب السنوات الأولى في الطب على أن تكون أول ما يتعلمونه. استعرض شرائح الأشعة سريعاً واحدة وراء الأخرى ثم جمعها معاً وأزاحها مع مغلفاتها الفارغة باتجاههما كأنه يتخلص من قمامة، وقال بحسم عراف:

– تأخرتم جداً.

– البركة فيك يا دكتور.

قال رفعت هامساً فنظر إليه الطبيب مندهشاً من جهله وجذب شرائح الأشعة مرة أخرى، وأخذ يؤشر له على تباينات البنفسجي والأحمر في كل منها. دون أن يعرف رفعت أي اللونين للخلايا المصابة وأيها للسليمة. وقال دون أن ينظر إليه:

– ألا ترى؟! الأورام منتشرة في كل أجهزته، ولا يمكن أن نغامر بضرب مشرط في بطنه، ستتداعى أحشاؤه في وجهي مثل بيت عنكبوت فور أن أفتح، وينتهي كل شيء بأسرع مما تتصور.

– والكيماوي.

قلب شفتيه وغمغم ــ **كل الناس تأتي في آخر لحظة وتطالبنا بالمعجزات!**

كان عيسى يستمع راضياً متدثراً بسكينة زادت شقرة وجهه إشراقا وكأن من ستنتهي حياته حسب قرار العراف شخص غيره. وعندما حسم الطبيب أمر الجراحة رمق صديقه بزهو المنتصر. ــ **ماذا جرى لك، أجننت؟ انتهى كل شيء، ثم إن أختي لم ترني منذ سنوات طويلة وأريد أن أعود إليها سليماً.**

وأخذ يضحك بينما وقف رفعت يجمع الأشعات ومغلفاتها منهياً المقابلة. لكن الطبيب أضاف:

– سأكتب له على دخول فوراً؛ لا بد أن يكون تحت الملاحظة هذه الأيام.

وتابع بصوت خافت موجهاً كلامه لرفعت:

ـــ الآلام ستبدأ بالتزايد بشكل يفوق قدرته على الاحتمال.. في المستشفى سيحظى باحتضار مريح.

كانت لهجة الطبيب حاسمة في هذا أيضاً.

– كما ترى، ولكننا سنعود إلى البيت أولا لنجلب أشياءنا الضرورية.

قال رفعت وأخذ بيد عيسى الذي قام متحسساً بالأخرى البلل في جلبابه الأبيض، قرَّب أصابعه من عينيه وقد اصطبغت بالأحمر القاني. قاده رفعت إلى الحمام المجاور لقاعة الاستقبال، وكانت المغلفات قد استقرت مهوشة تحت إبطه بعد أن ازدادت مغلفا جديداً صغيراً به تصريح الدخول.

دفع رفعت الباب بقدميه بقوة أجبرت ذراع الإغلاق الميكانيكي على التراجع. نفذا من الفتحة التي لم تلبث أن أغلقت وراءهما. وضع المظاريف على الأرض وساعده في جمع جلبابه إلى أعلى. خلع سرواله الداخلي. تأمل بقعة الدم الكبيرة وهو ينتزع من داخل السروال شريحة القطن الطبي التي كان قد وضعها داخله. لوثت قطرات الدم سيراميك الأرضية في المسار المائل للقطنة التي ألقى بها فأرجحت غطاء صندوق القمامة واستقرت معلقة خارجه، بينما تساند على الحائط وخلع السروال. فتح الماء على الموضع المبقع

بالدم الذي جمعه في يده. أغلق الصنبور. عصر السروال ونفضه ثم تركه على حافة الحوض.

- آه! كده آخر عَظَمة.

قال عيسى وهو يجلس على قاعدة المرحاض. وبدأ يكز على أسنانه ويداعب عضوه المستسلم كي يقنعه بإفلات القطرة التي تعانده. أفلتت منه صرخة ألم بينما اندفعت قطعة دم متجلطة سوداء تبعها خيط وردي غلبه في النهاية لون البول فصار إلى الصفرة الذهبية. مع النقطة الأخيرة التي عادت مرة أخرى إلى الأحمر المحروق كز عيسى على أسنانه وأغمض عينيه يستريح، ثم فتحهما راضياً ومندهشاً كعائد من رحلة طويلة.

- عَظَمة!

قالها مرة أخرى بعد أن غسل مقعدته ووقف محرراً جلبابه بحثاً عن السيالة التي أخرج منها لفافة جديدة من القطن حشرها بين إليتيه وسحبها إلى الأمام طاويا الحمامة داخلها وقد برزت من عينها قطرة حمراء كحبة رمان. جذب السروال وساعده رفعت في ارتدائه، ثم انحنى ليلتقط المظاريف بسرعة قبل أن تبحث يد عيسى عن ذراعه فلا تجدها.

أمام المستشفى وقف رفعت يستجدي السائقين، بينما لمَّ عيسى الذي انهارت قواه ذيل جلبابه وجلس على الرصيف، حتى توقف لهما أحدهم. نهض عيسى وساعده على الركوب

قبل أن يرد خلفه الباب ويسارع إلى الباب الأمامي ليجلس بجوار السائق.

أخذ التاكسي يشق طريقه خطوة فخطوة وسط زحام من كل الاتجاهات. السائق الذي انحنى ليعيد فتح وإغلاق باب رفعت أخذ ينقر بأصابعه إيقاعاً عصبياً على مركز عجلة القيادة فتترجم السيارة نفاد صبره إلى زمرات متتابعة غضبى. بدأ رفعت يعطس من كثافة العادم المختلط برطوبة أغسطس الدبقة. حاول إغلاق الشباك لكنه لم يجد مقبضاً لرافعة الزجاج. اختلس نظرة إلى الوراء ليطمئن على عيسى الذي ألقى برأسه إلى الخلف مسبل العينين، منفرج الفم مثل سمكة تبحث عبثاً عن الماء. وفجأة حانت منه انتباهة مع حركة مفاجئة من السيارة.

- هذه مسخرة.

- لم تعد عيشة.. ولا هذه حركة بشر متجهين إلى أعمال؛ إنها مسيرات احتجاج دون إعلان.

علّق رفعت نافد الصبر من تحت منديل الكلينكس الذي وضعه على أنفه لترشيح الهواء. وعندما التفت إلى الوراء كان عيسي ناعساً من جديد.

- وماذا تقول عن السائقين أمثالنا يا باشا، صدورنا تحجرت من القطران.

قال الرجل ذو الوجه المحمص الذي يبدو مع ذلك أصغر منهما بعشر سنوات على الأقل وهو يدير عجلة القيادة بغيظ هارباً من سيارة تعطلت أمامه.

– لكن هذا الزحام غير عادي، انظر!

وأشار إلى مصفحات الأمن المركزي التي تحتل الشريط الملاصق لكورنيش النيل في الاتجاه المعاكس لحركة السير، بينما احتل رصيف المشاة على الجانبين جنود مسلحون بالعصي والدروع، يقفون كأشجار سوداء تنضح جذوعها العرق المقطرن.

– لابد أن هناك موكباً من تلك التي تسمم حياتنا كل يوم. ماذا يخرجهم لمزاحمتنا ماداموا يخافون كل هذا الخوف، ثم ممن يخافون؟ من خلق ميتة؟!

– ميتة كيف؟! نحن شعب حديد.

قال رفعت معابثاً.

– حديد؟!ها هأ!

رد السائق هازئاً، وأخذ يغمغم كمن يكلم نفسه:

– هأ! بعد حرق الدم طول اليوم، والعيش على طبق كشري أو ساندويتش فول؟.. ثلاثة بالله العظيم أنا واحد من الناس أعود كل يوم في منتصف الليل ، لأنام مثل خرقة.

عاد رفعت إلى مناوشته:

– وماذا تريد بعد؟!

– يا سلام! ولا حاجة! أليست لدي امرأة تريد أن تتزفت كما تتزفت النساء؟!

وضغط الزامرة بغيظ ليمنع أحدهم من الاحتكاك به، وهو يزاحمه على صعود الكوبري الذي احتلت جانبيه أعداد ضخمة من الناس معظمهم فلاحون وفلاحات بجلابيبهم البلدية. استيقظ عيسى مرة أخرى مضطرباً، وأخذ يتأمل الواقفين مندهشاً في البداية ثم ملوحاً بيديه مبتسماً كما يفعل الزعماء الملهمون مع موظفي الحكومة وعناصر الأمن الذين يتم رصهم في طريقهم بوصفهم جماهير محبة. والسائق الذي أخذ يحافظ على زحف العربة صعودا شبراً فشبراً أخرج رأسه وسأل عن السر.

– مظاهرة.

أجابت عجوز في جلبابها الأسود. لا ينبئ شكلها عن أية معرفة بالقراءة والكتابة، وتحمل مع ذلك لافتة من القماش كتب عليها بخط بدائي : "لسنا بلطجية.. أنتم اللصوص".

تذكر رفعت ما قرأه أمس في صحيفة معارضة عن احتجاجات الفلاحين ملاك جزيرة الذهب على محاولة الحكومة نزع ملكيات أراضيهم لإقامة مشروعات سياحية عليها، كما قرأ وصف وزير الإسكان لاحتجاجاتهم بأنها بلطجة.

فجأة انفتحت ثغرة أمام السيارة فحررها السائق مغتاظاً وانطلقت منحدرة لتغادر الكوبري بحمولته من المحتجين المطوقين بقوات الأمن المتمركزة على المدخلين. اجتازت

السيارة طريق الفسطاط الواسع شبه الخالي في دقائق، واستدارت يميناً مستقبلة شارع صلاح سالم.

– **أين بالضبط في روكسي؟**

سأل السائق ، فاعتدل عيسى مبادراً بالرد.

– **مقهى الأمفتريون، تعرفه؟**

أومأ السائق إليه في المرآة موافقاً، وعاد إلى تركيز اهتمامه في طريقه مزاحماً كمصارع.

عندما توقف أمام المقهى، منحه رفعت عشرة جنيهات، تأملها طويلا، ثم دسها بقرف في جيبه بينما كانت عيناه تزنانه من فوق إلى تحت.

– **من يد ما نعدمها يا باشا.**

تجاهل رفعت سخريته ولملم الملفات وغادر مقعده ليفتح الباب الخلفي ويأخذ بيد عيسى.

5

ماذا لو صار عيسى غير موجود؟ كنا نعرف أن ما قاله في عزاء سلامة صحيح تماماً؛ الدفعة صارت مطلوبة، ولكننا لم نكن نعلم أنه سيتم بهذا التسارع ودون نظام أيضاً. لماذا عيسى وليس أنت؟ لم تفكر من قبل في أن تكون الأخير كواقف على الشاطئ يحمل ملابس أصدقائه الغرقى. كلهم يمضون ويتركونك مثقلا بذكريات ما عشتم معاً ذات يوم. هو غير مبال. اليوم موجود وغداً غير موجود. هذا كل ما في الأمر!

نعم؛ الموت لا يؤذي الموتى؛ بل الأحياء؛ الموت ليس ما يختفي بل ما يبقى مدوماً وحارقاً كسائل يغلي في الذاكرة التي لم يبلغها بعد النداء؟ ماذا يعني أن تعيش وحيداً في حياة لم تعد

تتعرف عليك. الكتابة التي اعتبرتها بديلاً لإنجاب الأولاد ما عادت تجلب السلوى في واقع لم تدربوا خيالكم على مجاراته. وليس هناك من امرأة يمكن أن تنذر نفسها لتمريض كهل مثلك هده السكر والضغط. إذا لم تكن محظوظاً بمصافحة نهايتك في شارع أو مكان عام ستتفسخ جثتك قبل أن يحطموا الأبواب ليلموا ما تبقى من عظامك والكمامات على أنوفهم.

هبطا بحذر الدرجات الثلاث التي تفصل المقهى عن الرصيف وقد شبّك رفعت ذراعاً بذراع عيسى وبيده الأخرى حمل الملفات، بينما اتخذ عيسى من يده الأخرى حجاباً للشمس فوق جبينه مظللاً عينيه وقد ضيقهما ناظراً إلى الجالسين على الطاولة التي ظلت لهم طوال ثلاثين عاماً، وبدأ في التلويح متدفقا في ضحكته غير المتحفظة، وفجأة أمسك خجلاً.

– تصورتهم جماعتنا.

ربت رفعت على ذراعه في حركة مواسية، متأكداً من أنه نسي أنهما آخر من تبقى من "جبهة الصمود". انتبه إلى ما في التسمية من سخرية! فهم لم يصمدوا في شيء أكثر من البقاء بعيداً عن مزاد الفرص غير المحدودة للسلطة والثروة الذي أوقع بمناضلين عاشوا سنوات طويلة على مجد دماء تقيأوها تحت الضرب في غرف التحقيق، ولم يخضعوا لإرادة زعيم بحجم إله اختلفوا معه دون أن يكون لديهم شك في إخلاصه الوطني.

أخيراً كانت مداومة الاتصال بينهم هى البطولة المتبقية. ورغم أنهم عاشوا السنوات الخمس الأخيرة لا يجتمعون إلا في مناسبة رحيل أحدهم، إلا أنهم حافظوا على نوع متثائب من الصلة. في عزاء سلامة منذ أقل من عامين أخذ عيسي يعد المتبقين، أشار بأصابع يمناه: **خمسة في عين العدو، يعني كلها سنة ونتخرج كلنا!**

بعدها توفي جميل بالكبد وذهب شوقي في غيبوبة سكر تافهة لم يرجع منها، أما رعوف المقبل على الحياة بطمع فقد سافر ليعيش مع ابنه المهاجر فى أمريكا، ولكنه لقي عزرائيل هناك متخفياً في صدام سيارة بعد وصوله بأسبوعين.

بدت قوى عيسى على وشك النفاد فسحبه رفعت إلى أقرب طاولة من المدخل. مط بوزه وهو يتأمل المكان كأنه يتعرف عليه للمرة الأولى، بينما أخذ رفعت يتابع تشكلات موجات البخار الخفيف المتصاعد من البلاط تحت حزمة من أشعة الشمس المتسللة من فوق المظلة.

جاء العجوز الأرمني ليفون بقهوة رفعت وكوب الشاي الكبير بالنعناع الذي داوم على تقديمه لعيسى منذ عرفت الجماعة طريقها إلى هذا المقهى. يرفض ليفون أن يقوم أحد غيره على خدمة عيسى. كان وجهه متهللاً وهو يضع بيديه المرتعشتين الكوب الكبير. وبدا في قميصه الأبيض النظيف

الذي تآكلت ياقته وبنطلونه وبابيونه طاعناً ونحيلاً أكثر من أي وقت مضى. لطالما تسامح معهم مرجئاً الحساب، ولطالما أقرضهم بواسطة عيسى الذي كان عليه أن يدعي دوماً أن السلفة من أجله هو.

كان عيسى دائماً شديد القدرة على جذب ندل المقاهي وبوابي العمارات، وباعة السميط والبيض على الكورنيش، والمجاذيب رثي الثياب حول ضريح الحسين، يسأل عنهم، يعرف أحوال المتزوجين منهم مع زوجاتهم أو مع أولادهم الذين يتمردون عليهم. ورغم أنه لم يكن مفيداً من الناحية العملية لأحد فإن هؤلاء الناس الذين يعيشون أمام الجميع بلا أسماء، كانوا يسرون جداً لأن أحداً ما يناديهم بأسمائهم التي لم يسمعوها منذ غادروا بلادهم.

اعتدل ليفون وسأل عيسى بعينين مبتهجتين:

– **الصحة تمام؟**

– **أنا؟ أخر عَظَمة أهه.**

لم يخطر ببال ليفون أن عيسى الذي أتبع إجابته بضحكة واهنة ربما يتبادل معه الحديث للمرة الأخيرة، وأنه لن يكون هنا ليودعه عندما يقرر العودة إلى بلاده التي استطاع أخيراً أن يشير إلى موقعها على الخريطة بعد تفكك الاتحاد السوفيتي.

منذ بدأوا ارتياد هذا المقهى في أواخر الستينيات أخذ عيسى يتابع جهود ليفون للبحث عن بلاده. وقتها كان النادل العجوز

قد تخطى الأربعين، لكنه كان لايزال وسيماً. له عالمه الخاص؛ ينهي عمله دائماً قبل موعد إغلاق المقهى بساعتين. يخلع زي النادل ويرتدي ملابسه العادية. يعيد تصفيف شعره بشكل مختلف. ويجلس كزبون مع زجاجة بيرة ونرجيلة. وكثيراً ما كان يحظى بصديقة تشاركه الجلسة ثم ينصرفان معاً.

لم يكن متأكداً أنه يريد مغادرة مصر، ولكنه كان يريد أن يثبت أن الأرمن ليسوا طائفة غامضة، بل شعب له أرض يعيش عليها مثل سائر الشعوب. الآن أصبحت أرمينيا موجودة في العالم وأصبح لها سفارة بالقاهرة يتردد عليها. ولم يجعل ذلك الأمور أفضل، بل أسوأ من السابق. " **لا يكفي أن يكون الوطن موجوداً ليصلح مكاناً للعيش، بل لابد أن يكون فيه من ينتظرك**". ظل ينتظر رداً واحداً على أي من خطاباته التي شرع في إرسالها منذ عشر سنوات. و عندما تضاءلت آماله في تسلم مثل ذلك الرد استقر تفكيره مع عيسى على أن الوطن بلا معارف، وإن لم يصلح للعيش، فإنه يصلح على الأقل للموت فيه؛ ولهذا فإنه لن يلغي فكرة العودة، ولكنه سيؤجلها إلى آخر وقت ممكن. " **أرض الإنسان على الأقل ستكون أحن على بدنه من أية أرض، أليس كذلك؟**".

فجأة أدرك ليفون وهن صديقه فصمت وتضببت عيناه بالدموع. وأراد عيسى أن يبدد حرج الموقف فسأله:

– **عَظَمة؟**

– **مملكة!**

وأشار بإبهامه تجاه فمه يسأله هل يحضر نرجيلة؟

لوح عيسى بكفيه كمروحتين متقاطعتين رافضاً العرض، ثم أشار إلى كوب الشاي المنعنع أمامه:

- **عَظَمة!**

"**حقاً، ماذا لو صار عيسى غير موجود؟**" أخذ السؤال يدوّم في رأس رفعت المجهد وهو يتأمل عيسى الهادئ كما لو كان قد بدأ الغياب. لم يكن في البداية يتمتع بأية مكانة خاصة، كان الوحيد الذي لم يعرف طريقا إلى السجن، وتخلى سريعاً عن محاولاته في الكتابة مكتفياً بقراءة مسودات الأصدقاء وإبداء الملاحظات الذكية التي لم يعمل بها أحد، ولذلك فقد كان هناك من يتساءل عن سبب تواجده في هذه المجموعة من الأدباء والرسامين المنهمكين بالسياسة. بعضهم اتهمه بأنه عين للأمن عليهم، ولم يكن عيسى يغضب، بل يبتسم بسذاجة غالباً، بعد ذلك صار يرد بهدوء حاسم: "**اسمع يا ولد! السجن الذي دخلته لبضعة أيام ليس شارة ترتديها، وليس امتيازاً خاصاً يرتب لك حق التطاول، إنك لم تحرر بسجنك أحداً ولم تنقذ قيمة**". أخذت مكانة عيسى الذي قبلوه في البداية لظرفه ورقته تتدعم عندما بدأت شارات السجن تستخدم مسوغات للفجور السياسي، حتى انتظم معظم الذين اختلفوا ذات يوم مع نظام وطني في خدمة سماسرة الرأسمالية العالمية، بما يمتلكون من قدرة على التنظير والتنظيم. ويريدون مع ذلك من الآخرين احترامهم بحق سابق تضحياتهم.

بفضل هؤلاء صار عيسى ضرورة. ربما لا يمثل الموت مشكلة بالنسبة له فعلا، لكنه سيجعل رفعت مسناً ويتيماً. أخيراً بدأ يعامله، لا بوصفه صديقاً، بل ذات أخرى احتياطية تحضر عندما تتعب الأولى، يجلس كمرآة يرى فيها وجهه، لا يبادر عيسى بالحلول، ولم يطلب منه ذلك يوماً؛ كانت قدمه تتعثر في الحل بسبب الهدوء الذي يوفره عيسى بإنصاته العميق الذي غالباً ما يتبعه بضحكة مجلجلة يسخر بها من طريقته في تعقيد الأمور، فإذا به يكتشف أن ما تصوره تراجيديا إغريقية ليس سوى فاصل من كوميديا الحياة. وعندما يبدو على رفعت الغيظ من استخفافه، يكف عن الضحك ويتخذ سمتاً جاداً:" **اسمع! ليست هناك قوى شريرة تترصدنا. وليست هناك أقدار حزينة وأخرى سعيدة. الحياة تحب فقط أن تحاورنا؛ مثل طفل نزق يطرح عليك ألغازاً، فإذا لم تتوصل إلى حلها تولى هو المهمة، لكي يتسنى له طرح لغز جديد. الطفل أكثر منك حرصاً على استمرار المسامرة، وكذلك الحياة**".

بدد الصمت صراخ روز التي جاءت في جلباب بيتي خفيف، بثدي واحد مستدير يتقافز وقحاً كما كان دائماً.

– هذا الرجل بلا مسئولية، لم يكف عن بهدلتي طوال عمري، آهه لترى بنفسك، تركني أكاد أجن دون أن أعلم أين هو!

قالت، ثم انخرطت في البكاء.

- لكنك تعرفين أنه معي!

قال رفعت مغتاظاً، وهو يعرف أنها جاءت خصيصاً لتقديم هذا العرض أمامه لتثبت أنه كان على خطأ طوال تلك السنوات.

- ولماذا لم تخبرني أنت يا عاقل؟

ردت بحدة، لأنه كان الوحيد الذي يحرص على الابتعاد عنها منذ زواجها من عيسى إلى اليوم. زاروها جميعاً في المستشفى عندما استأصلت أحد ثدييها، ولكنه لم يفعل. وفي الفترة الأخيرة اتفق مع عيسى أن يطلبه في أي وقت يريد فيه الخروج وينتظره بالشارع ليكون عنده بعد خمس دقائق. كانت تتعمد إهانة عيسى وسبه بصوت يصل رفعت عبر التليفون كلما عرفت أنه على الخط، حتى بدأ عيسى يخرج ليطلبه من تليفون البقالة المجاورة ثم ينتظره جالساً على حوض الزرع أمام البيت وقد لمَ جلبابه الأنيق.

قدم لها رفعت كرسياً وهو يرجوها أن تخفف من انفعالها ولومها لعيسى لأن كليهما متعبان. انهارت عليه ضاغطة ثديها في زنده وهي تتداعى إلى الكرسي. واصل عنايته بها فصب لها كوبا من الماء شربته ثم تخلصت منه إلى الطاولة سريعاً وهي تمسك رأسها.

- الصداع يقتلني!

أخرج شريطاً من الأسبرين وألقاه باتجاهها، جمعت عينيها في بؤرتي النظارة، وقالت بدلال استدعته من لحظة على مسافة أربعين عاماً:

- لكن عيب أيضا، أنا روز يا رفعت أم نسيت؟!

- وماذا ارتكبت أنا يا روز؟

- لنا بيت والأصول أن تطرق بابه، بدلاً من أن تخطف صاحبك من الشارع، أنا زوجته ويعلم ربنا كم أنا حزينة عليك يا عيسى.

ثم أخذت تنشج، بينما تململ عيسى متألماً دون أن يقول شيئاً، ولم يجد رفعت في نفسه القدرة على مجاراتها، لكنه أضاف نافد الصبر:

- ماذا جرى يا روز، الرجل مريض، لكنه ليس عيلاً صغيراً في النهاية!

- أنا الأخرى مريضة يا ناس.. آه!

وأمسكت رأسها مرة أخرى.

- واضح أنك متعبة فعلاً، خذي عيسى جهزي له حقيبته، وسأذهب لأعد حقيبتي وأمر لآخذه.

قال رفعت وهب واقفاً حتى لا يدع لها فرصة لمزيد من المماحكة. أخذت بيد عيسى مواصلة النشيج وهي تردد:

- يا حبيبي يا عيسى، ربنا يجعل يومي قبل يومك.

6

أمضي دون أن يشعر بي أحد، دون أن أؤثر في أحد. لم أترك ما يدل على أنني كنت موجوداً هنا، حتى على المستوى الأكثر تفاهة الذي يحققه البسطاء: إنجاب الأطفال، لو أن لي ابناً أو ابنة الآن! على الأقل كنت تركت لرفعت حريته، يرافقني أو لا. الآن هو مضطر؛ ليس لي غيره، ثم إنه ليس شاباً، لديه متاعبه هو الآخر مع الضغط والسكر. سأجبره على هجر عاداته التي كونها على مدى كل هذه السنوات: قهوة الصباح، اسطوانات الموسيقى، قيلولته في الثانية التي لا يغير موعدها. لا يمكن أن أقول شيئاً، ولن يعرف ما ينتابني الآن

من تأثر، البديل روز التي لا تكترث إلا بنفسها، لو رافقتني ستحملني على تمريضها وليس العكس.

أذهب وحيداً مع صديقي الوحيد لأنني لم أترك علامة. ومن ترك؟! من منهم استطاع أن يكتب مالم يُكتب قبله؟ من منهم رسم مالم يُرسم؟ وكم من الممكن أن تعيش رواية أو لوحة؟ قرناً، قرنين؟ وماذا تفعل البشرية بعد ذلك إذا كانت حياتها معلقة بالقطعة الملهمة؟ هل استطاعت أعظم الروايات أن توقف حرباً؟ من أدراني؟! لم نجرب الحياة في عالم بلا فن ولا نعرف ما كانت ستصبح عليه البشرية دون إيبور وحمورابي وهوميروس والمتنبي وموتسارت وشكسبير وتشيخوف. أرأيت؟! تستطيع أن تعد إلى الصباح أسماء عباقرة ولن تنتهي. وهذه مشكلة. من يكتب بعد هؤلاء يكتب فقط بما يمتلك من صفاقة. وأنت لم تكن تمتلك منها ما يكفي لدفعك إلى الكتابة، ثم إن البشر اليوم غيرهم في السابق. كان يكفي شاكيموني أن يقول إن وراء كل شئ سبباً لكي يصبح بوذا العظيم ويؤسس ديناً! لا تستطيع اليوم أن تهدي الناس ولا أن تمتعهم بسهولة. تقول هذا لكي تبرر تنازلك عن واجب المحاولة؟! حاولت، حلمت بكثير من الكتب المدهشة، وفي كل مرة أهم بخطوة أجد أنني سأكتب بأشياء واقعية، لغة تخذلني في المنتصف، لا تقدر على قول ما أحس به، لا توجد أبجدية تستطيع أن تحمل بالضبط ما يحس به المرء أو تتطابق تماماً مع الموجودات، اللغة بطبعها رنانة وصاخبة وأحادية. خذ

مثلا: الحزن. لاشك أن رفعت حزين الآن، لكن إلى أي حد هو حزين؟

كيف تكتب الإيماءات والنظرات دون أن يصيبها صخب اللغة بالفساد؟ نظرة روز المودعة التي نظرتها اليوم، كيف أصفها دون أن أعتدي على خمسة وثلاثين عاماً من العيش تحت سقف واحد دون أن يجرؤ أحدنا على التحرر من الآخر؟ كيف أصف حزن تلك النظرة ودرجته بالضبط، كيف أخلص من النظرة ذاتها شعور الخذلان الذي لا يحس به إلا صاحب ثأر فوجئ بعدوه ميتاً من تلقاء نفسه؟ كيف أصفي هذا الألم الذي خالط حزنها دون أن يذوب فيه تماماً؟! الألم الذي لا يمكن أن يعرفه إلا أنا، مثلما لا يمكن لغيري أن يصف ظل الارتياح النحيل لتخلصها من عبء عويلي الليلي في الأيام الأخيرة؛ رغم أنني حاولت قدر المستطاع كتمانه.

هل يمكن لأحد غيري أن ينخل من كل هذه المتناقضات مشاعر الغبطة التي يشعر بها المدين عند انقضاء دينه أو عند رحيل الدائن؟ الأحاسيس هشة تتلفها اللغة ولا تبقي منها إلا ما يتبقى على سطح نيجاتيف تم تعريضه للضوء قبل تظهيره. لا أظن أن شيئاً فاتني أو أنني قصّرت. لا أظن أن هناك من جلبت كتاباته المسرة لأحد، لكنهم يتخيلون هذا لتبرير ساعات عذابهم الطويلة التي لا طائل من ورائها، أما أنا فقد جلبت لي تخيلاتي الراحة، دون أن أخسر شيئاً، خسرت فقط لحظات

العذاب التي كان من الممكن قضاؤها في البحث عن كلمة أو وصف ايماءة أقنع نفسي بأن كتابتها كانت ضرورية.

وصلا إلى المستشفى في عتمة الغروب. خلف الكاونتر تقف ثلاث فتيات غير من كنَّ في الصباح، إحداهن يسترسل شعرها الأسود على ظهرها ويلف كتفيها منحدراً إلى نحرها هائشاً على منبت النهدين الباديين من طوق البلوزة. الثانية الأنحف قصت شعرها (آلا جرسون) وصبغته بالأصفر متناسقاً مع لون عدستيها الزرقاوين وبشرتها الشقراء، والثالثة البضة ترتدي حجاباً عصرياً يبروز وجهها الحليبي مبرزاً عينيها السوداوين وشفتيها المكتنزتين. كأنهم اختاروهن لإرضاء جميع التطلعات.

بهو الاستقبال الضخم صاخب بالحركة. هكذا هي المستشفيات الاستثمارية التي تتكاثر في القاهرة منذ سنوات لخدمة الأصحاء من سكان المدينة، أولئك الذين يذهبون للفحص الروتيني أو يستخدمونها مكاناً للالتقاء والنزهة متعللين بزيارة مرضى حقيقيين تعرف إدارات المستشفيات كيف تجعل عبورهم سريعاً ليختفوا في حجرات تنتهي بالموت، بينما يظل للبهو بزائراته من نساء الطبقة العليا المظهر المبتهج لفندق. ليس هناك ما يؤكد طبيعة المكان سوى الصيدلية الصغيرة المتوارية بجوار متجر ضخم للزهور والهدايا.

جلس عيسى واهناً. تقدم رفعت إلى الكاونتر بالمغلفات التي يحملها تحت إبطه منذ الصباح، سلم أمر الدخول لذات الشعر المبتهج. أخذت ترقم البيانات على مفاتيح الكمبيوتر بحيوية راقصة. خطر له أنه لو نجح في إقناعها بأن تغادر مكانها وتتوجه معه إلى حيث يجلس عيسى وتمنحه قبلة، فقد تنتصر الحياة بداخله على الخلايا الهائجة.

– غرفة ترى النيل من فضلك.

ليس هناك فرق بين أن يقضي المرء ليلة مع صديق يحتضر في غرفة تطل على النيل أو على مشهد جانبي، ولكنه كان كمن يغريها بزيارتهما في غرفة جيدة بعد انتهاء عملها. الفتاة التي تعودت فيما يبدو على تجاهل هواجس المرضى ومرافقيهم الأصحاء، رحبت به من خلال ابتسامة إقصاء رقيقة، ثم أشارت إلى أحد عمال الخدمة، فاتجه مباشرة إلى الحقيبتين بجوار عيسى وتقدم الصديقين إلى المصعد الضخم.

عندما توقف المصعد في الطابق الثامن، قادهما الحمال إلى الغرفة 805. تخلص من الحقيبتين واتجه مباشرة إلى الشرفة. أزاح الستارة مشيراً إلى النيل، مثل سمسار عقارات يحاول إقناع العميل بالشقة التي وفرها له. تبعه رفعت ليتعرف على المكان. حاول أن يفتح باب الشرفة ولكنه لم يطاوعه.

– أبواب الشرفات مسنكرة في غرف المرضى، هذه تعليمات أمان.

قال الرجل موضحاً. طوى رفعت في يده خمسة جنيهات، وعاد سريعاً ليعتني بعيسى الذي تداعى على أحد سريري الغرفة فور دخوله. سأله إن كان يريد الحمام، فأشار بيده طالبا مهلة يستريح فيها.

– تعال لنرى، حاسس ببلل.

قال عيسى بعد أن تمالك قواه وأعطى رفعت ذراعه.

أغلقا باب الحمام وراءهما بينما تركا باب الغرفة مواربا. خلع عيسى سرواله. أزال القطنة المبللة بالدم وأخذ يتأملها. جذب شريطاً من بكرة ورق الحمام ولفها به، وألقى باللفة في سلة المهملات. جلس على التواليت. ضرط ضرطة أتبعها بتنهيدة ارتياح. انتقل إلى المغسلة منظفاً نفسه، ثم أخرج من سيالته لفة جديدة من القطن وضعها تحت سرواله. تناول الصابونة وغسل يديه ووجهه ناثراً الماء على شعره الفضي المزاح إلى الخلف.

– ناقصك عروس.

قال رفعت ممازحاً.

– موجودة وحياتك، أرأيت رئيسة الحكيمات في الطابق؟!

قال عيسى الذي لم تكن حوارات من هذا النوع تروقه حتى في أيام الشباب، ولكن هذا لم يمنعه من أن يزن في لمحة واحدة المرأة التي كانت تغنج في التليفون بصوت ظاهر خلف الكاونتر المنصوب في الممر قريباً من غرفتهما.

بعد نصف ساعة جاءت ممرضة تحمل جهاز قياس الضغط وترمومترا. سألت عن الملفات وطلبت من رفعت الخروج.

غادر إلى ركن للزوار في الممر الطويل الذي بدا مقهى حقيقياً بصخبه وسحابة الدخان التي تغطي الجالسين الذين يتكلمون في وقت واحد وفي أيديهم أكواب الشاي والقهوة البلاستيكية. جاء نادل طلب منه رفعت قهوة، بينما تعلقت عيناه بباب الغرفة المغلق على عيسى مع الممرضة والطبيب الذي دخل منذ لحظات. كانت رئيسة الحكيمات تبدو في لقطة جانبية لا تزال توشوش التليفون. عندما تحرك مقبض الغرفة وقف رفعت مهرولا إلى الطبيب وكأنه كان ينتظر معجزة ولدت لتوها على يديه.

– قلت لك في الصباح. كل ما سنفعله هنا هو إراحة الحالة من الألم، أعطيته حقنة مخدر وكتبت له على الجرعات الضرورية لأن الآلام تكون غير محتملة في هذه المرحلة.. ما الجديد الذي تتصوره؟

كتم رفعت رغبته في الشجار وانسحب إلى الغرفة. كانت الممرضة تقف أمام عيسى وفي يدها نحو خمس حبات مختلفة الألوان. تناولها عيسى. ألقى بها مجتمعة في فمه، بينما كانت الممرضة جاهزة بالماء وراءها. جرع جرعة وتمدد على سريره. جمعت الممرضة أشياءها على العربة ووقفت تحدق في رفعت.

– ألف سلامة للبيه يا باشا.

قالت دون أن تتحرك، فمد يده إلى جيبه، أخرج عشرة جنيهات ومدها إليها. تناولتها وبدأت في إزاحة العربة أمامها. رد وراءها الباب وعاد ينظر في وجه عيسى.

- **كيف حالك الآن؟**

- **عَظَمة.**

أجاب قبل أن يغمض عينيه. أخذ رفعت يرتب حاجياتهما في الخزانة المعدنية متابعاً التردد الواهن لتنفس عيسى. يعد حتى يحس بالزفرة، ينتظرها في كل مرة بالقلق نفسه الذي تملكه عندما نسوا المفتاح الوحيد لإحدى الشقق التي سكنوها معاً، لا يذكر الآن أيها، يومها تطوع عيسى دون غيره بالعبور من شباك الجيران والمرور على إفريز السقف الرفيع حتى وصل إلى شرفتهم، ولوح لهم وقد وقفوا يتابعونه مقطوعي الأنفاس.

ضبط إيقاع تنفسه عليه، يستنشق الهواء، يكتمه ويخرجه معه ليقنع نفسه بأن إيقاعه طبيعي، وبأن ما يتصوره وهن الموت ليس سوى أوهام وليدة خوفه.

أنقذته طرقات خفيفة على الباب. كان عامل خدمة يدفع أمامه عربة أخرى أخرج من بطنها صينيتين عليهما علب بلاستيكية ملونة بأغطية شفافة تفضح تفاهة ما تحوي. في إحداها ملعقتان من أرز أبيض، ملعقة خضراوات مسلوقة ورقيقة لحم بارد، في الثانية قطعة جبن، إضافة إلى علبة

زبادي وإصبع موز وقطعة خبز صغيرة ملفوفة في البلاستيك الشفاف أيضاً. ليس هناك فارق بين طعام المرافقين الأصحاء وطعام المرضى، نفس الطعام الرمزي الذي تحمله الطائرات لتدهش به ركابها، عندما ينزع التواقون إلى الأرض أغطية الأطباق الافتراضية المتحفظة بحرارتها وهم يصيحون: يا للمعجزة، كيف طبخوا في السماء؟! نعم، كيف يطبخ في المستشفى أولئك المشغولون بمطاردة وحوش الألم؟

جذب رفعت الطاولة التي تتحرك على عجلات بجلبة تعمدها وأخذ في نزع الأغطية، فتنبه عيسى، وسأل:

– عشا؟ آخر عَظَمة والله!

قام عيسى الذي يكره الأبواب، جذب حبل الستارة فتجمعت الشرائح البلاستيكية على جانب باب الشرفة الزجاجي. وقف يتأمل السيارات المسرعة على طريق الكورنيش وقد تسللت أنوارها إلى الغرفة دون جلبتها وكأنها مشاهد من فيلم صامت. جذب المقبض. نبهه رفعت إلى أن الباب وهمي لا ينفتح. تردد لحظات ثم اتجه إلى باب الغرفة وواربه على الممر فاقتحمت الغرفة جلبة الأقدام المنسحبة وأصوات الممرضات يطلبن من الزائرين المتلكئين سرعة المغادرة. دقائق وبدأ الصمت يغمر المكان، لا يقطعه بين الحين والحين سوى صوت عنيف لحركة اصطدام بين سيارتين أو صراخ فرملة مفاجئة ينجح في اختراق زجاج الغرفة، وبين الحين والآخر صوت رتيب بالممر

لحركة عجلات طاولة تدفعها ممرضة أو الضحكة الشبقة لرئيسة الحكيمات عندما ترتفع فجأة.

قشّر عيسى إصبع الموز، ورفض تناول شئ آخر. واكتفى رفعت بقطعتي اللحم مع علبة زبادي. نحيا الطاولة جانباً. شعر رفعت بالرضا وهو يراه يهيئ سريره لنفسه. وضع الوسائد في وضع قائم على شباك السرير الحديدي واضطجع مبتهجاً.

– **يا سلام يا ولد!**

قالها وكأنه سيبدأ حديثاً، ولكنه لم يكمل.

جذب كل منهما بطانيته على نصفه الأسفل، صوّب رفعت جهاز التحكم على التليفزيون الذي انفتح على مشهد من بحيرة البجع. الراقصة التي ثبتت أصابع قدمها اليمنى على الأرض كمسمار بينما فردت اليسرى في وضع متعامد، كانت تدور خفيفة في يد الأمير على إيقاع تشايكوفيسكي الحالم، بينما لم يعد يأتي من أصوات الخارج سوى الأنين الخافت للمرضى في الغرف المجاورة، والذي منح رفعت أملا في عودة عيسى من هذه الحافة، لمَ لا؟! هناك من هم أكثر مرضاً منه يصله أنينهم المستسلم، الذي بدا استمراره الرتيب منَشة للموت.

7

إنها هناك. فرشاة أسنانك بالحمام. هذه الحقيقة كافية وحدها لمنحك هذا الإحساس بالخفة، الذي يطغى على شعورك العميق بالحزن لوجودك هنا مع صديق يحتضر. حتى بعد أن أسقط السكر نصف ضروسك، لا تزال على استعداد للتخلي عن كل عاداتك، مقابل احتفاظك بفرشاة الأسنان؛ أفضل الاختراعات على مر التاريخ. تلك المعجزة البلاستيكية التي تعلن ميلاد حريتك كل صباح.

في مثل هذا التوقيت كان الاستيقاظ في المعتقل الذي دخلتموه بسبب دفاعكم عن شئ واحد غامض وكبير: "الحرية" دون أن تفهموها أو تفهمكم السلطة المذعورة التي لم تسمح إلى

اليوم بفرصة لتشممها خارج أسوار السجون؛ على الأقل كي يعرف الناس إن كان ما يحلمون به يستحق الأسف أم لا. المحظوظون فقط من أمثالك ممن تعرضوا للسجن نالوا المعرفة؛ ففيما يشبه الكشف الصوفي يعرف كل سجين ما تعنيه الحرية بالنسبة له. البعض من الحبسة الأولى قرر ألا يسمح لأحد بعد ذلك بحرمانه من سيجارته أو كوب الشاي أو زجاجة البيرة. بالنسبة لك كانت فرشاة أسنانك التي تقف الآن شامخة في كوبها البلاستيكي بجوار أنبوبة المعجون على رف المرآة.

في السادسة صباحًا يصفِّر الشاويش عبد التواب، معلناً عن وقت دورة المياه فتتذكر أنك محروم من الحرية، ولم تكن الحرية في تلك اللحظة سوى فرشاة أسنانك التي لم يكن مسموحاً بها وكأنهم يعرفون ما تمثله بالنسبة لك.

تتطلع إلى الشارع من كوة الزنزانة، تستمع إلى صخب المارة، ترى في البعيد امرأة مسرعة فلا تفكر إن كانت مارست الحب جيداً في الليلة الماضية، أو إن كانت سعيدة أو تعيسة في حياتها، إن كانت تهرول إلى عمل تكرهه أو إلى لقاء غرامي مختلس مع رجل يعاني الضجر من حياته الزوجية مثلها؛ بل تفكر، إن كانت قد استثمرت ما تتمتع به من حرية وغسلت أسنانها جيداً هذا الصباح.

لم يتمكن المحققون من انتزاع اعترافاتك تحت الإهانة أو الرشوة بفرصة لتدخين سيجارة عرفت كيف تقلع عنها بسهولة. ولم يمثل غياب الشاي في فترات ما قبل التحقيق وأثناء الحبس

الانفرادي أية مشكلة. وقد ساعدك هذا على مواصلة الحياة بعد ذلك باعتزاز بالنفس. لا تدري ماذا كان من الممكن أن يحدث لو أن المحقق الفظ عرف مدى قرفك من اختفاء أسنانك تحت طبقة جير معجونة بأنواع من البكتيريا والفطريات تنمو كطحالب زلقة في فمك العاطل عن الكلام والبلع لأيام متواصلة.

قام رفعت يتسحب، متحاشياً إزعاج عيسى. كان الوهج الوردي لأشعة الشمس الأولى يضئ وجهه الغافي بابتسامة خفيفة، بينما يسراه مربوطة إلى أنبوب محلول. متى جاء هذا الحامل إلى الغرفة وكيف علقوا له المحلول؟ من سحابة السكينة التي غطت وجهه هبت نسمة رضى عبرت روح رفعت في لحظة كانت كافية لتأكيد إحساسه بالسعادة.

دخل الحمام دون أن يغلق الباب وراءه. عالج صنبور الماء بحرص وأبقاه على أصغر فتحة ممكنة. بعد أن غسل أسنانه جيدا استدار نصف دورة إلى التواليت. كان سطح الماء معرقاً بالدم، ولكنه جلس وفعلها. حاول أن يعالج محبس الشطاف فلم يفلح. مسح نفسه بمنديل ورقي وقام دون أن يشد السيفون. وقف يتأمل فضلاته التي نامت ساكنة تحت ماء آسن مختوم بطبقة رقيقة من الدم. وخرج على أطراف أصابعه راضياً عن نظافة نصفه الأعلى ومذاق فمه، لكنه أخذ يتشمم مجال حركته بقلق ليكتشف إن كان عدم اغتساله يخلف رائحة.

اندس في سريره من جديد رغم الحكة التي يشعر بها مع الإحساس بالتقزز من إسته. دنا من عيسى يتأمل وجهه. كان لا يزال في غفوته راضياً كملاك. أحس بالنظرة تلامس وجهه ففتح عينيه.

– هذه مسخرة!

قال مشيراً إلى إبرة الثيرون في معصمه.

– لم أعرف من قبل فندقاً يطعم نزلاءه من معاصمهم.

– إنها خدمة النجوم السبع. وأنت يا صاحب السعادة لم تسكن سوى فنادق النجوم الخمس، فلا تتكلم حتى لا يكتشفوا ضعة أصلك.

– إذن اطلب خدمة الغرف ليرفعوا هذه المائدة، أنا شبعت.

قال عيسى وهو يهم بالنهوض. قام رفعت إلى تليفون الغرفة يستدعي ممرضة. الخط مشغول. خرج إلى الممر. رئيسة الدور الصباحية منهمكة في مناقشة حادة على الطرف الآخر. ثمة كلام عن الأولاد. أخفت السماعة بيدها مستمعة إليه وهزت رأسها بالموافقة. استأنفت حديثها. عاد إلى الغرفة. طلب من عيسى الانتظار قليلا. قطع عقرب الساعة مسافة عشر دقائق أخرى دون أن تأتي. عاد إليها. هزت رأسها بعصبية قبل أن تضع السماعة وتتبعه. كان عيسى واقفاً يمرن رجليه على المشي حول السرير حتى آخر مدى للأنبوب.

حيّت الرئيسة عيسى ودخلت مباشرة إلى يده تفك القيد.

- هكذا ينبغي أن تفعل عندما يريد أن يقوم أو عندما يوشك المحلول على النفاد.

كانت توجه حديثها إلى رفعت وهي تعلمه كيف يغلق الصنبور، وينزع الأنبوب ويسد إبرة المعصم بالسدّادة. عندما أنهت بيانها العملي كان عيسى قد تحرر.

- آخر عظمة.

قال وهو يتحسس السوار الدامي في طريقه إلى الحمّام.

ابتسمت المرأة وأخذت طريقها إلى خارج الغرفة، ثم عادت تدفع عربة أمامها فوقها صينية الإفطار المغطاة وصحيفة مطوية. هل هذه خدمة تقدم إلى كل المرضى أو إلى كل المرافقين أم أن "أبو جهل" من أوصى بإرسال الصحيفة؟ فتح رفعت الصفحة الأولى وانزلقت عينه على خبر ينفي على لسان وزير الإسكان وجود أية نية لمصادرة أملاك المزارعين في جزيرة الذهب دون أدنى إشارة إلى مظاهرتهم التي أغلقت طريق الكورنيش.

8

سيتركك وحيداً هذا المخادع؟ هو من عرّفكم بوجه زائف للغياب.

حتى الخمسين لم تعرفوا الموت إلا بوصفه حكاية مضحكة من حكايات أبيه وأصدقائه الضحّاكين. أتذكر يوم عرفتم بموت جدته؟ دهشتكم أمام اكتشافكم أنها كانت حية لم تزل، عندما فقدت توازنها وسقطت من فوق سطح الدار؟ كان عائداً من الجنازة يحكي لكم عن الحاج ماذا كان اسمه؟ يوسف، الحاج يوسف كان بجوار أبي عيسى الذي تخطى السبعين ويقف حزيناً على قبر أمه، أخذه من ذراعه وهو يوشوشه. من حقك أن تحزن فأمك لم تبل ثياب العرس! تجاهل الأب سخرية

صديقه وقال: بعد هذا العمر تموت قتيلة؟ وكيف كان على عزرائيل أن يتصرف؟ لم يجد حلاً سوى دفعها من فوق السطح! ولم يعش أبوه بعدها طويلاً . وعاد عيسى يحكي كيف عابثه ذات الرجل بينما بكل جدية كان يصافح المشيعين. نظر إليه فوجده رافعاً جلبابه على المقبرة، وهو يناديه: ولد يا عيسى! تعال ياولد خذ عب دفا على قبر أبيك. يضحك وأنتم تستغربون جلجلة ضحكته بينما لا يزال جسد أبيه ساخناً، فيتخذ سمتاً جاداً: ماذا جرى لكم؟! الموت حدث تافه، اليوم أنت موجود وغداً غير موجود، المرض هو المذل. ليتني أقلع بسهولة كما أقلع أبي.

أنت لم تفعل ما يستوجب العقاب يا عيسى باستثناء هذه المخاتلة. المرض مذل فعلاً، معك حق، لكن الموت ليس مضحكاً أبداً.

اليوم دخل في التجربة دون أن يبدو عليه الخوف. هل هو حقيقة غير مكترث أم يراوده الخوف ويستمر في اللعبة؟ أمن أجل سهولة الإقلاع هذه عاش منسحباً، يراقبكم وأنتم تضاجعون جسد العالم؟ كتبتم ورسمتم وعرفتم نساء بقدر طاقتكم. تركتم بصمة ولو على مؤخرة هذا الكوكب. لكن من أدراكم؟ ربما لم يكن زاهداً هذا المراوغ، ربما طريقته هي الأصلح! القدرة محدودة، أما الرغبة فلا تنتهي. معه حق. نحن نأكل ونشرب ونختار مسكننا وملابسنا ونضاجع بالرغبة لا بالحاجة، وهو عرف كيف يجعل نظرة أو ملامسة الحب تلبي

رغباته التي لا تنتهي ولا يحدها نفاد القدرة. ألم يكن يحرجكم كلما سألتموه عن تفاصيل علاقاته؟ يقول بوجهه الملوي امتعاضاً: أنتم تتقفتم ولكن شهواتكم ظلت عامية خرقاء.

توقفت رعوية بيتهوفن عندما انتهى الوجه الأول للشريط مخلفا صمتاً مزعجاً. تطلع رفعت إلى الساعة ثم إلى الأفق الممتد أمام سريره. تجاوزت الرابعة وما من هبة ريح تحرك أوراق شجرة التين الكاوتشوكي الضخمة الثابتة على الكورنيش كصنم. زوج ضامر من العصافير يتهارش في الشرفة بكسل زوجين قديمين. ويبدو أنهما استشعرا برودة الزجاج بفعل التكييف داخل الحجرة فأخذا ينقرانه ويتمسحان به، قبل أن تستكين الأنثى وتنشر جناحيها تحت ذكرها الذي قبض عنقها بمنقاره.

على وجه عيسى المسبل العينين ارتسمت ابتسامة أخذت تتسع، ولم تلبث ضحكته أن جلجلت واهتز جسده بطريقة آلمت يده المشدودة إلى الأنبوب الذي علقوا فيه كيس دم هذه المرة. سأله رفعت مندهشاً.

– أبداً تذكرت لحظة دفن أبي، والله العظيم حكاية مسخرة.

قال عيسى وانزلق مرة أخرى إلى غفوته دون أن تفقد شفتاه المنفرجتان عن نابيه المميزين ابتسامتهما.

– تذكر يوم موت جدتك؟

قال رفعت ليستعيده مرة أخرى.

– آه، أنت فاكر؟ قال لي أبي الذي رأيته حزيناً للمرة الأولى: اليوم فقط صرت مسناً؟

حظي أبو عيسى بين أصحابه المتوكئين على عصيهم بلقب "الولد اليتيم" لكنه لم يحتفظ باللقب طويلاً. وصار عيسى هو الآخر يتيماً مهيأً للموت دون أن يحظى بالإقلاع السهل الذي تمناه، لكن تقلصات الألم المكتوم التي وسمت وجهه في الأسابيع الأخيرة بدأت تغادره، بفعل الحبوب التي يبتلعها في العاشرة صباحاً ومساء وحقنة المخدر والمحلول المعلق معظم ساعات اليوم.

– آه.. آخر مسخرة والله!

زفر عيسى وهو يعتدل مدلياً ساقيه. قام رفعت وأغلق محبس الأنبوب. حرر له معصمه وأغلق الإبرة بسدادتها، وهيأ له الخف باتجاه قدميه. بدا عيسى متعافياً وهو يتجه إلى الحمام. جلس على التواليت متبعاً كل ضرطة بصيحة استحسان قبل أن يخرج بالماء ينقط من وجهه وشعره ممسكاً بجوربيه المغسولين في يده.

في الأشهر الأخيرة، مع تزايد حجم بطنه، تخلى عن الملابس الأفرنجية لصالح جلابيبه البيضاء شديدة النصاعة التي يغسلها بنفسه، ولكنه لم يتخل عن ارتداء الجوارب التي

واظب عليها صيفاً وشتاء، مع الأحذية أو الصنادل أو الأخفاف وحتى مع البُلغ الفلاحية البيضاء.

لم يكن يستقر في مكان قبل أن يغسل جوربيه وينشرهما. تنقلت الجماعة إلى شقق متعددة بين شبرا والزمالك ومصر الجديدة، وكان القادم من أول الشارع يتأكد من وجود عيسى في الشقة بفضل الجوربين المعلقين على حبل الغسيل. وحتى عندما تزوجوا وأصبح لدى كل منهم بيته الخاص كان عيسى يعرف طريقه من الأبواب إلى حمامات شققهم؛ يتوجه مباشرة لغسل جوربيه، الأمر الذي اعتادته الزوجات.

حاول فتح باب البلكونة لنشر الجوربين في الهواء، ولم يستطع فتلقفهما منه رفعت ودخل بهما إلى الحمام بينما تداعى هو إلى الكرسي بالماء يقطر من وجهه دون أن يجففه كما يحلو له دائما. زفر بارتياح:

– **مملكة. يا سلام! لو كوباية شاي بنت هرمة.**

ضبط رفعت الراديو على إذاعة أم كلثوم ملوحاً به لعيسى في الهواء، قبل أن يثبته على الكومودينو في الوضع الأمثل لنقاء الموجة. تناول التليفون وطلب البوفيه موصياً على كوبي شاي بالنعناع.

9

من أعرفه، يجلسني في حجره، يؤرجحني باهتزازات منتظمة من فخذه، يشعر بدفء تبولي فيهرول بي إلى الحمام، يشطفني بالماء الفاتر ويغير لي سراويلي. يصفف شعري ويلمه بتوكة لها رأس قطة. لا أنام إلا على هدهدة صوته. يحكي لي حدوتة بينما تسرح يده بين خصل شعري. من أعرفها تبدأ في الغيرة عليّ، تبدأ في الحرص على ألا تتركنا معاً.

إنه ليس أبي! إذن هو زوج أمي وأنا ربيبته التي تحل له فيما تقول من أعرفها. ولكنها لم تعد بعد ذلك أمي، بل جدتي، وهو "جدو شكري" الذي لم أناده سوى باسمه مجرداً رغم محاولات جدتي، ليس جدي، هو زوج جدتي وأنا ربيبته التي

تحل له فيما تقول الجدة. لم يدخل يوماً دون هدية. عجلة، فستان، توكة، فرشاة شعر، قطعة شيكولاتة، وبعد ذلك حمالات صدر وسراويل من الحرير وعطور وأدوات زينة كنا نعرف كيف نخفي أمرها عن جدتي. لا ينام إلا بعد أن أحكي له كل ما مر بي خلال النهار: من كلمك؟ من غازلك؟ من أغضبك؟ بينما تمتد يده من تحت لحافه تتلمس يدي التي أعرف كيف أجعلها في أقرب نقطة منه بحيث لا ترانا الجدة الضجرة بين إغفاءة وأخرى. تعرفت يدي على الملمس ذاته الذي كان لأصابع شكري عندما خلع الخاتم وثبته في يدي. لا يزال صوته يتردد في أذني: لا تخلعيه إلا من أجل رجل تشعرين أنه يستحقك. لم أتبين لحظتها أنه كان يحكم بهذا الخاتم إغلاق القفل على الطوق الذي يلفه حول حياتي. رفضت كل من تقدموا لي لأنهم لا يملكون نفس الملمس الذي ليديه، ولا رائحة جلده المدبوغ برائحة التبغ المنعس. أرى الذعر في عيني جدتي قبل إغماضتها الأخيرة دون أن تقوى على ما كررته مراراً: لن يصنعوا لك رجلا على هواك، ولا يمكن لك أن تعيشي وحيدة، دعيني أذهب مطمئنة عليك.

لعلها كانت على حق! فلم أعرف من قبل معنى الرعب من قطة تتحرك في الظلام، معنى الطمع في عيون الرجال الذين فقدت الأمل في أن يكون بينهم من يماثله. ولكن هل يكفي الخوف من الوحدة سببا للزواج؟ ما معنى تعذيب رجل بلامبالاتي وسأمي؟ أشرف هادئ وحنون يستحق واحدة تحبه،

تشعره بالامتنان لهداياه، تشاركه متعة التسوق لشقة المستقبل، التسكع وتناول الساندويتشات أمام دور السينما التي يحب ارتيادها. قلت سأتعوده وستخرجني العادة من أسر الذكرى. ولكن كيف؟ عاد شكري ليشوشني مرة أخرى.

"عيسى"؟!

الاسم مجرد حيلة، ولكن، ألم يكن من المفترض أن يكون أكبر قليلا؟!

عندما رحل منذ عشر سنوات كان في هذه السن بالضبط. كأنه اختفى هذه المدة في مكان ما مثلما كان يفعل عندما نلعب استغماية، أو عندما يريد أن يفاجئني، أو يقيس حجم اللهفة التي سأسأل بها جدتي عنه. كان يختبرني! الوجه الأشقر ذاته، الحسنة على وجنته اليمين، والعين المستغرقة بعيداً كأنها تقرأ كتاباً لامرئياً. نفس الاضطجاعة كانت له عندما أغمض عينيه. الرائحة التبغية نفسها كانت لجسده الممدد على السجادة بينما أحتضن بيديّ رأسه المستريح على رجليّ. عاد هذه المرة باسم عيسى؟! هل هي لعبة من ألعابك يا شكري؟!

وقعٌ خفيف لأقدام في الممر سبقت الطرقات غير المتوقعة على الباب. ودون انتظار إجابة دخلت الطبيبة وفي يدها جهاز الضغط. نظر رفعت مندهشاً لعودتها بعد دقائق من مغادرة الغرفة، بينما تهلل وجه عيسى. "**متأسفة نسيت أقيس له الضغط**". توجهت بخطواتها المرتبكة إلى سرير عيسى الذي

أخذ يصعد زاحفاً ليضطجع وبدأ يشمر كمَّ جلبابه. كان ظهرها باتجاه رفعت، أخذ يتأمل مؤخرتها المعبأة برشاقة في البالطو الأبيض، بينما تشخلل أساورها الذهبية التي تطوق مرفقها الأيسر المشمر.

تناولت بلطف ذراع عيسى وانحنت تلف عليه قماش الجهاز. وضعت الصندوق المفتوح على السرير بجواره وسكنت نحو دقيقة لا تدري ما تفعل، وفجأة انتبهت مرتبكة إلى الخطوة التالية وقد توهج وجهها، فأخذت تضغط المنفاخ المطاطي وتنظر إلى المدرج، ثم بدأت في إفلات الهواء ومراقبة الجهاز.

- **حلو قوي.**

قالت كما لو أنها تحلم. وأخذت تفك العصابة عن ذراعه باضطراب محدقة في عينيه باستغراق، ثم تناولت الترمومتر من جيب البالطو. أخرجته من جرابه. لم يقل لها أي منهما أنها فعلت ذلك لتوها. نفضت الترمومتر في الهواء فاصطدم بيدها الأخرى وانكسر. شهقت شهقة وتراجعت مسرعة إلى الخارج.

بعد دقائق عادت تريه أساورها وقد تبرقشت بنقط سوداء قالت إنها من أثر الزئبق الذي خرج من الترمومتر المكسور، عاتبته بدلال:

- **أرأيت! ماذا سيفعل بي خطيبي؟!**

- **أنا أخوه الكبير، ومسئول عن تعويضك عن أي أذى سببه هذا الشاب الطائش.**

قال رفعت ليلفت نظرها إليه وهو غير متأكد إن كان وجهها يروقه، ولكنه كان يخاطب روح الشباب في مؤخرتها الغضة التي تكاد تقفز من داخل البالطو. التفتت إليه معابثة:

– هو كبير بما فيه الكفاية ليصلح غلطته بنفسه.

أشار إليها بالجلوس، فجلست على حرف سريره، تحدق في عيسى.

– الله.. سوسن اسم جميل.

– كيف عرفت؟!

ابتسم عيسى وأشار إلى البطاقة المعدنية على صدرها.

ابتسمت وهي تنظر إلى بطاقتها وكأنها أدركت وجودها للمرة الأولى، أما هو فقد عاد إلى صمته، وتورد وجهه. تراجعت عيناه أمام النظرة الثابتة للطبيبة التي انتفضت واقفة وانحنت تلتقط جهاز الضغط وتلمه بارتباك.

– تصبحان على خير.

جذبت الباب وراءها، وأغلق رفعت النور متهيئاً هو الآخر للنوم. وبعد أقل من دقيقة كانت في الغرفة للمرة الثالثة.

– لم تأت ممرضة لتغيير المحلول؟!

قربت الحامل من السرير وغيرت كيس المحلول، ثم أوصلته بمعصم عيسى وفتحت المحبس وقد قربت الأنبوب من عينيها لتتأكد من سريان السائل على الضوء الخفيف القادم من زجاج الشرفة. أراحت يده إلى جواره.

لمَّ عيسى بطانيته على جسمه مخلياً جانباً من السرير ربت عليه داعياً إياها للجلوس. أخذ جسدها ينزل في دفعات متمهلة كأنما بلا قرار من عقلها. استقرت بجواره متحاشية التلامس بينما اشتبكت عيناها بعينيه في عقدة قدّرت عدم جدوى محاولة فكها. دس عيسى في يدها لفة من أوراق العشرين جنيها. ألقت بها منزعجة على صدره.

– **لقد تلفت أساورك فعلا.**

– **لا يهم، المهم أن الخاتم لم يمس.**

تناول أصابعها وجذبها إليه، مالت عليه بليونة أتاحت له تقريب يدها من عينية المجتهدتين وتأمله. وجده مجرد خاتم عادي مطعم بفص فيروز في حجم حبة حمص.

سحبت يدها وتسللت خارجة بعد أن تركت نظرة معلقة في الهواء، كانت تلمع كلما اقتحم الغرفة خيط نور أطلقته السيارات المسرعة على الكورنيش في جوف الليل.

لماذا عادت بعد لحظات من مرورها الأول؟ ولماذا ألزمت نفسها بعمل الممرضات فعلقت المحلول؟ أخذت أذنا عيسى تطنان بنداء سبق أن سمعه. الاسم المدون على بطاقة الصدر حقيقي أم من اختراعه ؟ الوجه المتوهج بالحمرة هو تماماً وجه سميرا طالبة الدكتوراه المجرية، سمراء بودابست الوحيدة التي جاءت إلى الصحيفة أثناء إقامتها في القاهرة لجمع مادة رسالتها عن حدود حرية التعبير في الصحافة المصرية. لغتها

العربية السليمة بلكنتها الغريبة قليلا جعلته يقدمها للآخرين باسم "سوسن" صحفية من الجزائر.

دار بها في الجمالية والدرب الأحمر والقلعة، أطلعها على خطوط الضخامة الفرعونية في مجموعة "السلطان قلاوون" ومسجد "السلطان حسن" وبساطة الخيمة في "الحاكم بأمر الله" و"الحسين". بين الملاحظات المعمارية كان يشرح لها كيف استغنت الصحافة عن الرقيب المقيم اعتمادا على الحرص الذاتي لرئيس تحرير يرعى مصالحه مع المافيات الرسمية ورجال الأعمال الذين يعملون في معظمهم واجهات للمسئولين وأولادهم. نقلت إليه صدمتها عن تفاهة الرجل الذي كان أول من طلبت مقابلته. "**لكن "أبو جهل" هذا هو الوحيد الذي يحظى بعدد من الكتاب يفوق عدد قرائه**". ابتسمت للتسمية المجازية للرجل التي لم يعنها أن تتذكر اسمه الحقيقي، ولكنها لم تفهم ما يعنيه بهذه الفزورة. وعندما شرح لها أن المقال الذي يظهر يوميا بتوقيع الرجل يكتبه محررون آخرون كادت تتعرض للإغماء من الضحك. " **قلت لي عدد كتابه .. أكبر .. من عدد قرائه"؟!** أخذت تكررها لتحفظها بينما كانا ينزلان من القلعة إلى باب "زويلة" ذراعه في ذراعها وهي تهيئ فرص احتكاك ذراعه بثديها الصلب المشرع الحلمة تحت البلوزة القطنية السخية.

سوسن، المجرية السمراء لم تكن الأولى التي تتمحور حياتها حول عيسى. كانت لها ذات العينين الطيبتين المليئتين

بالرغبة اللتين تتلامحان الآن في سماء الغرفة. النظرة الداعية نفسها هي لسميرا وليس لغيرها.

10

على الطاولة المعدنية الباردة يستلقي عيسى ساكناً. يبدأ الرجل في تجريده من ملابسه. يخلّصه من الفانلة الداخلية ويلقي على وسطه قطعة مربعة من الدمور قبل أن يشد السروال من تحتها. يفتح الصنبور ويأخذ في تحسس دفء الماء على يده. من الواجب أن يكون الماء دافئاً، لا حاراً ولا بارداً حتى لا يتألم. إنه يحس كل شئ. يقول الرجل موضحاً، قبل أن يترك الخرطوم في يدك ويستقبل الماء على قطعة الليف التي أخذ يدعكها بالصابونة حتى امتلأت بالرغوة. يشير إليك بتحويل الماء إلى الجسد الممدد أمامكما. يغمره الماء ويبدأ في التسرب تحت رغوة الصابون التي تتجمع في زوايا الطاولة

المنحدرة دون أن يتحرك عيسى أو يرد عن نفسه يد المغسّل بالليفة الخشنة. يشير الرجل إليك لإغلاق الماء ويبدأ في دعكه من جديد. يشير مرة أخرى باستئناف الضخ. يضع يده تحت قطعة القماش ويأخذ بفرك عضوه فيتلون الماء المنساب إلى المسرب بالدم. ساعدني لنقلبه. يأمرك فتمد يدك. ينقلب عيسى خفيفاً وطيعاً. يعيد الرجل ترغية الليفة ويعاود دعك الجسد من الجهة الأخرى. اقلب معي. يطلب ثانية ويعود إلى الوجه. يدخل أصابعه في الفم ويأخذ في الدعك تحت ضخ المياه التي تجري بقطع الدم المتخثر في البداية، قبل أن يتخذ الماء المنساب لون الشفق. يظل يدعك حتى يصفو الماء تماماً. يمد السبابة والإبهام داخل فتحتي الأنف ويأخذ بتنظيفهما حتى يطمئن تماماً إلى نظافة الماء الجاري منهما، ويفعل الشيء نفسه مع الأذنين. يقول معلقاً وقد انتبه إلى استغراقك في التأمل: "لابد من إتقان الغسل، إنها أمانة سأسأل عنها يوم القيامة".. يستدير إلى ناحية القدمين. يمد يده من تحت قطعة القماش إلى أسفل الفخذين ويطلب منك توجيه المياه إليه. يمد إصبعاً إلى داخل الإست فتسيل المياه بخراء أخضر ويأخذ في تحريك إصبعه إلى أن يتأكد من صفاء المياه تماماً. يشير لإغلاق الصنبور. ينتظر حتى يكتمل تسرب الماء. يتناول قطعة من القطن من فوق الرف وراءه ويبدأ في التقطيع منها، يحشو الفم وفتحتي الأنف والإست. يمد يده إلى الكفن المطبوق. يفرد منه جزءاً بقدر المكان الخالي من الطاولة. يبدأ

في رشه مع الظاهر من الجسد بالكولونيا. اقلب معي. ينقلب عيسى سريعاً فوق الجزء المفروش من طبقات القماش الثلاث. يبدو مستريحاً إلى نظافة القماش المرطب، جزعاً قليلا من رائحة الكولونيا النفاذة. يأخذ في لفه بالباقي، ويزيحه إلى الجهة الأخرى من الطاولة. يدخل الرأس في طبقتين بينما يغطي كل الجسد بالطبقة الثالثة ويحكم رباطا على الرقبة وآخر على القدمين. يبدو عيسى نحيفاً أكثر مما بدا في عريه.

انتفض رفعت صارخاً، بينما امتدت يده إلى رقبته تنزع طوقاً لا مرئياً. انزلقت أصابعه تعالج أزرار منامته، وقد أخذ لهاثه بالتباطؤ. بحلق في السقف ليتأكد أنه كان يحلم. احتاج للحظات لكي يستعيد وعيه بالمكان. أرهف أذنه التي تربت جيداً في المعتقل يتسمع تنفس عيسى الواهن. أغمض عينيه على شعور بارتياح وجذب شهيقاً طويلاً.

في ليلة كهذه تمكن من متابعة شوقي من خلال حائط زنزانتيهما في القلعة ليتأكد من استمراره في الحياة. كانوا قد ألقوا بهم في الزنازين التي تشبه أخمام الأرانب والتي تحولت إلى متحف بقرار استعراضي تواصلت بعده قرارات الاعتقال. بعد أسبوع من وصولهم بدأوا يستدعونهم للاستجواب واحداً بعد الآخر، كان كل خوفهم مركزاً على شوقي، الأضعف بنية. عندما جاء دوره كانوا جميعاً مستنفرين عصبياً، اتفقوا على علامات: نقرة واحدة لحظة إخراجه من زنزانته. نقرتان لحظة

إعادته. ثلاث نقرات بين ساعة وأخرى تعني أنه بخير. عندما نظر رفعت من فتحة زنزانته ورأى السجانين في غبشة الفجر يجرون شوقي كالذبيحة تابعهم بأذنه، والتصق سمعه بالخارج طوال غيابه حتى سمعهم يعودون ويلقون به في زنزانته ويصفقون الباب. طرق الطرقتين على جدار جميل، وألقى بأذنه محبوس الأنفاس على حائط شوقي يتسمع خرخرة العودة إلى الحياة، يوقع له على الحائط نقرات متتابعة عرف كيف يجعلها أعذب ما تكون. يستمع إلى رده الأقرب إلى التمليس على الحائط، ويترجم لجميل على الجدار الآخر ليتولى بدوره نقل الأخبار لجاره وهكذا.

ساءل نفسه بصوت عال كما لو كان يتحدث مع شخص آخر.

– هل ينقضي ما نحن فيه الآن ويصبح مجرد ذكرى؟"

حاول استعادة شعوره في الحلم. اكتشف أنه لم يكن ملهوفاً. كان متقبلاً للأمر في البداية، مجرد إحساس بالثقل. نوع من تعب الروح. نعم هذا هو. إجهاد الروح أمام رؤيته عيسى ساكناً وبعيداً إلى هذا الحد. أدهشه أنه لا يذكر اشتراكه من قبل في تغسيل أحد. لا يمكن أن يكون ما مر به للتو اجتهاداً خالصاً للمخيلة. أجهد ذاكرته التي أسعفته أخيراً بمشهد تغسيل أبيه. كان طفلا في السابعة، سكن تحت السرير النحاسي المرتفع ذي الأعمدة، يتطلع إلى جسد الأب بين أيدي الرجال فوق الطاولة الخشبية العتيقة التي وضعوا تحتها طشتاً كبيراً يستقبل الماء

المنحدر بالصابون ورائحة الكولونيا نفسها، هي التي شمها للتو في الحلم.

أرهف أذنه منصتاً إلى صوت خرير واضح. أضاء النور من الزر المعلق فوق رأسه. كان الدم يتدفق من الإبرة في معصم عيسى يطرطش الملاءة. واضح أن عيسى حاول أن يتقلب فانتزعت الأنبوبة من معصمه. هرول يمسك بيده ويضع السدادة على مؤخرة الإبرة. وقف يتأملها حتى اطمأن إلى إحكام الغلق.

فتح عيسى عينيه يتأمل الغرفة ببطء مستغرباً وقفة رفعت فوق رأسه. وقعت يده على البلل. رفعها يتأمل الدم.

- إيه المسخرة دي؟!

مسح له رفعت أصابعه وضغط زر الجرس الذي انطلق مبدداً السكون. جاءت ممرضة تفرك عينيها. أشار لها إلى الدم على الأرض وعلى الملاءة.

- الصبح نغيرها.

قالت بضيق وهي تمسح الملاءة بمنديل كلينكس رمته إلى سلة المهملات واستدارت خارجة تتثاءب. أطفأ رفعت النور محاولا النوم من جديد بينما كان صوت آذان الفجر في مسجد قريب يرشح من زجاج الغرفة المغلق.

11

هل أنا مضطربة؟ حزينة؟ لا أعرف حقيقة شعوري؛ ربما سأرتاح من هذا الوضع الهش الذي أبقاني فيه طوال الأسابيع الأخيرة، لكن ستنهشني الوحشة، إنه لم يمت بعد ومع ذلك اتخذت الشقة المظهر الكئيب لشقق الأرامل. المؤكد أنني لن أكون سعيدة لهذا الفراق كما تصورت آلاف المرات. جربت الابتعاد عنه ولم أقدر. مشيت وراء جموح جسدي، استمتعت برجال كثيرين كانوا على استعداد لقضاء بقية أعمارهم تحت قدمي. بعضهم أحس إلى الآن وجع تفتحهم داخلي، ولكنني كنت أتقيأ لذتي على أبواب شققهم وأعود يسحبني حبل إحسان هذا المتصدق عليّ بحياته فيقبلني بالعطف المتعالي لإله.

الرجل الوحيد الذي أهان كبرياء جسدي. كان يشم فيّ روائح أصدقائه دون أن يبدي أي نوع من الاستياء لي أو لهم، فقط كان يعطيني ظهره وما يلبث أن يصلني صوت تنفسه المطمئن. تبحث عنه مؤخرتي في تقدمات وانسحابات مستكشفة حذرة مثل يد عمياء تتلمس الطريق. أحس خفق الهروب المتأفف من مؤخرته. أواصل ملاحقته ويواصل هروبه حتى يجف حمض الرغبة مخلفاً طعم العطش المالح في رحمي الذي ينكمش كالزهرة المستحية. أنام وقد تركت له أبواب أحلامي ولكنه لا يدخل. أحس به يتسحب خارجاً في الصباح ليكون أول من يجلس في صالة التحرير التي يغادرها إلى جولته اليومية من مقهى لمقهى، أو هكذا كان يقول. لا يعود إلا بعد أن يولد اليوم الجديد. لم تنجح كل أساليب الغواية في استثارته. ولم تنجح كل ضروب الشكوى والتشنيع في جعله يحاول الدفاع عن رجولته. ربما أخطأت في حقه! هل كان عليّ أن أتصرف معه بشكل مختلف؟ هل كان عليّ ألا أعوّل مع هذا المتأمل الكتوم على لغة لحمي التي كانت مفهومة تماماً للرجال الآخرين؟ لم أكن أضطر للذهاب أبعد من سرير لكي أتفاهم مع أحدهم. الوحيد الذي لم يفهمني، لطالما تجاهل انتصاب نهدي اللذين كانا يتصلبان لمجرد عبور فكرة مضاجعته في خيالي. لم يحرص على تمثال الرجولة بداخله وأنا متأكدة أن لديه حياة سرية يخفيها بكل فنونه في ادعاء البلاهة، وإلا ما كان ليحاط بهذا العدد من النساء اللاتي يشبهنه في الحيطة واللؤم،

ويساعدنه على إتقان دور البهلول ويساعدهن بدوره في تغطية علاقاتهن به التي تجري تحت سمع أزواجهن. ها هو العرض يوشك أن ينتهي؛ خمسة وثلاثون عاماً من سوء التفاهم ستمضي ولا أدري هل سأتنفس بعدها طعم السعادة؟ طعم التحرر من الدين؟ كيف سيكون طعم الحياة دون عيسى؟ بالأحرى دون أحد. أخي لا يزال إلى اليوم على مقاطعته لي، والرجال ضعيفو الذاكرة، لن يتذكر أحدهم ضراعاته لكي أبقى بجانبه. حتى إن تذكر فإنه لن يلزم نفسه بالعودة إلى امرأة فقدت أحد ثدييها وتساقط شعرها. التي تركته امرأة أخرى لم تعد موجودة. وحده عيسى من يمتلك هذا التفاني.

لم يكونا قد انتهيا من إفطارهما عندما اندفعت روز إلى الغرفة بلهفة أم عثرت أخيراً على وليدها المختطف.

– عيسى، كيف حالك اليوم يا روح قلبي؟

سرحت عيناه بعيداً، وهي تدلك يده الحرة وقد تناولتها بكلتا يديها. همَّ بالوقوف، فقامت معه تسحب الحامل بيدها الأخرى. جلس على سريره قبل أن يكافح ليشد ساقيه ويستلقي. أحكمت فوقه البطانية الخضراء. عادت لتجلس على الكرسي خلف سريره مباشرة. وفجأة زعقت:

– رفعت! أنا أقول أمامك، صاحبك هذا عمره ما عرف المسئولية. ما أكثر ما رأيت على يديه، ما أكثر ما تركني

دون قرش، لكن الإهمال لنفسه أيضا؟! يا ما قلت له! من ثلاث سنين وهو يشخ دما وأنا أتوسل إليه الذهاب إلى طبيب.

أشار لها رفعت بيده لتهدأ، وكأنه يقول لها لم يعد وقت للعتاب، فأمسكت برأسها. دخلت ممرضة قصيرة تدفع أمامها عربة تضع عليها أقراص الدواء وجهاز الضغط وكيس محلول جديد، فاجأتها روز:

– **تعالي يا مدموزيل، شوفي لي الضغط.**

ارتبكت الممرضة لحظة، ولكنها أمام اللهجة الآمرة من روز التي أتبعتها بصرخة تألم، توجهت إليها، لفت شريط القماش حول يدها، وأخذت تضغط المنفاخ بعصبية، تأملت القراءة ثم بدأت في تسريب الهواء، وجذبت الجهاز منها. وقالت بلهجة عدوانية:

– **مضبوط.**

– **مضبوط؟! جهازك بايظ يا حلوة!**

لم يغب عنها التعريض الجنسي في رد روز فنظرت إليها بازدراء دون أن تعلق واتجهت إلى عيسى، تتأمل جريان المحلول، تغلق المحبس وتستبدل الكيس بالجديد، قبل أن تثقبه بإبرة السرنجة وتعيد فتح محبس الأنبوب. انهمك رفعت في التطلع إلى حركة يديها وكأنه يراقب ساحراً انتظاراً للحظة خروج حمامة صنعها من المنديل الذي دسه تواً في جيبه، بينما سكنت روز تماماً، وبدت في صمتها ضئيلة عما كانت بشكل مثير للشفقة.

المرأة التي تجلس الآن بإيشارب يغطي رأسها، ونظارة طبية، وثدي وحيد في مواجهة آخر مهزومين من شهود شبابها، كانت أعجوبتهم. حتى اسمها كان مفاجأة لهم؛ وقد جاءوا إلى الجامعة من القرى، يعرفون من الأسماء أم علي ورابحة وصابحة ونجية وفهيمة.

طالبة كلية التجارة كان فورانها متمرداً على الثماني عشرة سنة التي عاشتها، حملها تقديسها لجسمها إلى قاعات كلية الفنون بدلا من مدرجات كليتها التي يلهث طلابها في متابعة حسابات الربح والخسارة لمشروعات افتراضية مملة. أخذت تتعرى أمامهم ليرسموها. موديل مجاني للطلاب الفقراء الذين لم يكن بوسعهم أن يدفعوا للموديلات المحترفات.

كانت تستمتع باسترخاء فينوس، تضع أسفل بطنها وردة عباد شمس كبيرة قبل أن تسمح لهم بالدخول، تراقب سعيدة الهوس في نظراتهم. كانت عيونهم تلهث في صعود وهبوط تضاريسها الصريحة التي لها قوة تكوين تماثيل عصر النهضة؛ لا يكاد الواحد منهم ينزل عينه إلى لوحه ليخط قوساً إلا ليعود سريعاً خوفاً من أن تلتهمها العيون الأخرى في غفلة منه.

اكتشفوا أن الرسم لم يكن شرطاً لتعريها فتخلى بعضهم عن هوايته التي كرس لها نفسه، منحتهم فرصة الحياة الأرستقراطية في رحلات جماعية نظمتها في فيلا أبيها بالمعمورة. كانت تتناوبهم دون كلل في اتفاق صامت بينهم جميعاً. يمارس

الآخرون حياتهم العادية عندما تختار أحدهم لتختلي به في حجرتها أو تخرج به إلى حديقة الفيلا أو رمال الشاطئ ليلاً. وأحياناً ما كانت تختفي مع أحدهم لأيام ثم يعودان ينضمان للجماعة في هدوء، منسجمين مع قسمة العمل والمصروف القليل في شقة شبرا التي استمروا فيها سنوات بعد تخرجهم والتحاق بعضهم بالعمل في المجلات والصحف والبعض الآخر بأعمال وهمية توفرها الدولة لأمثالهم من محبي التعطل، وفاء لطريقتهم في العيش أو لمواهبهم التي لم تجد من يقدرها.

وعندما تم القبض على الجماعة بتهمة الانتماء إلى تنظيم شيوعي لم يكونوا يأسفون على شيء تركوه وراءهم قدر أسفهم على روز، التي نجحوا في استدراج طيفها إلى زنازينهم المنفردة، حتى خرجوا وفوجئوا بأنها قد تزوجت عيسى الذي تعرفوا عليه ببار كاب دور. كان وقتها يحاول كتابة القصة وانضم إلى الشلة، وكان الوحيد الذي لم ينم معها. **"لماذ يا مغفل؟!"** **"هي التي طلبت، ثم إن أحداً كان لابد أن يتزوجها"**. كان أبوها قد مات أثناء شهور حبسهم، ولم يعد لها سوى شقيقها الأصغر الذي انضم للإخوان وبدأ يتابع حركتها، حتى دخل عليها ذات ليلة وهددها بالقتل إن لم تجد رجلاً يتزوجها. استمهلته ساعة وخرجت لتعود بعيسى في يدها.

- جواب من الخواجاية.

قالت وهي ترمقه بنظرة متعالية بينما مدت يدها إليه بمغلف كبير يختفي لونه البني تحت عدد كبير من الطوابع. دس عيسى المغلف تحت وسادته. وأعفاه من التعليق طبيب أربعيني وسيم صار فجأة داخل الغرفة.

– اتفضاال.

قال عيسى بلهجة ممطوطة كما لو كان جالساً على مصطبة أمام داره في "**العش**" فابتسم الطبيب واتجه إلى التقرير المعلق على خلفية السرير، ثم سأل عن ملف الأشعات والتحاليل. أخذ يقلبها، يرفع الألواح باتجاه النور. تناول عيسى الملعقة الأخيرة في علبة الزبادي، وقام باتجاه الطبيب الذي طلب منه الاستلقاء على سريره.

– ممتاز، نعمل منظار لكي نبدأ العلاج.

– علاج؟!

سأل باندهاش وغبطة.

– نعم، سنبدأ جلسات الكيماوي بعد أن نعالج هذه الأنيميا البسيطة.

– الدكتور أحمد قال إن ذلك غير مجد!

– هذا رأيه، لكن أنا أرى الأمل كبيراً، ثم إننا يجب أن نفعل ما بوسعنا، وإلا لماذا أنشئت المستشفيات أصلاً؟

ارتعشت شفتا عيسى على غير إرادة منه. تشابكت العيون مثل بكلة خيط منقوضة. بينما أخذت هوة الصمت الساحق تتسع.

12

حقاً! لو خرجت من هنا سليماً، ستكون الحياة قد أثبتت أنها مجرد مسخرة!

سأكتب كل هذا في رواية. هل أنا سعيد بهذه الاحتمالات الجديدة للحياة؟ أظن هذا. ليس هناك من يفرح بالمغادرة؛ حتى المؤمنين الذين يؤثر عنهم ذلك. كل ما يقال عن ابتهاج أحدهم في لحظات الرحيل ليس سوى استعراض، محاولة لاتخاذ سبب أخير للخلود من الشجاعة المدعاة في مواجهة الموت. وربما يختلق أتباعهم هذه الأساطير لكي يحجزوا لأنفسهم المكانة ذاتها، طالما هم من يتسلم الراية من بعدهم.

لا أحد يعرف ما ينتظره هناك، ولا أحد يعود ليروي ما حدث، حتى أولئك الأكثر تسليماً لابد أن تنتابهم لحظات شك حول مصيرهم. حقاً! إذا لم يكن هناك شيء ستكون مسخرة! فخ سخيف. شيء مخيف ألا تكون موجوداً. لماذا علينا أن نموت ونتحلل في التراب؟ الفراعنة على حق عندما كانوا يحفظون الجسد. لتذهب الروح الغامضة إلى غموضها، لكن الجسد هذا الذي يتألم دليل وجودنا، من صنع أجساد أخرى. ليلة نكاح على هذا القدر من الامتياز أو السوء، إطعام على هذا القدر من البذخ أو التقشف، لعب أو عمل على هذه الدرجة من الصعوبة أو اللين.. هذه الحدبة الصغيرة التي أعيش بها بسبب العمل المبكر المجهد لعظام الطفولة الطرية، الكالو في بنصري من جراء الإمساك بالقلم الجاف لتعديل صياغة أخبار تافهة يجني من ورائها أبو جهل الصفقات، حتى الأحشاء تتشكل نتيجة لهبات أو إكراهات الآخرين، رئتاي تبادلتا في النهاية حجميهما بسبب مداومة النوم على الجنب الشمال حتى لا تكون روز أول ما أراه عندما أستيقظ. آه! إذا خرجت من هنا سيكون أفضل جداً. أختي لن تتألم لرحيلي المفاجئ دون أن تزورني في مرضي، لن تبذل جهداً لكي تمتنع عن لومي لأنني عشت ضعيفاً ممتثلاً لتحكمات روز التي تمكنت من إزاحة أختي من حياتي حتى اللحظات الأخيرة: لا تخبر أحداً، أنا واحدة مريضة وليست لدي طاقة لقرف الفلاحين " كل العش ستأتي لزيارتك لو أخبرت أحداً هناك" قالت بغلظة عندما

أخبرتها بأنني أريد أن أرى أختي. إنها ليست معي في المستشفى فلماذا لا أبلغهم الآن؟ سأنتظر قليلا حتى أرى نتيجة العلاج. لو خرجت سليماً سأعود إلى البلد، حتى لو لم يكن هناك أحد من أصدقاء الطفولة، ولم يبق من أسرتي سوى أختي، سأساعدها في رعاية أطفالها الذين ينبغي أن يكملوا تعليمهم، سميرا ستكون معي! ستفرح بالحياة في "العش". هي على استعداد للعيش معي في أي مكان. وتلبس الملس؟! تبقى قمر فيه، حاجة مملكة فعلا!

لمعت عينا عيسى بتصميم لا يتناسب مع وهن الجفنين اللذين استطاع أن يرفعهما بصعوبة ناظراً في عين صديقه بأكبر كمية من الأمل يمكن لنظرة أن تحملها. لم يتمكن عيسى من تحمل نداء الاستنجاد في عين صديقه. تملحت الدمعة في عينه فالتقط علبة سجائره والولاعة مغادراً الغرفة.

- سأدخن سيجارة.

قال دون أن ينظر خلفه ومضى إلى استراحة الزوار. تداعى إلى المقعد الوحيد الخالي. أشعل سيجارته. أخذ يلم نفسه في المكان الأخير الخالي بين مجموعتين من الزوار أذابهما حضوره باحتلاله الفرجة التي تركوها بينهم.

- من فضلك يا محسن، بلغها بالمحسوس. لا أريدها أن تشمت فينا. سيجارة؟ جرس تليفون. هاي. أوكي سبعة حلو. في المول؟ في الشارع قدامه؟ سي يو. قلت لها لا تبقى بنتي ولا أعرفك لو سكت له على الإهانة. هنا الشاي وهنا النسكافيه.

لكنه بيحبها. جرس. نعم ياروحي، آه، عند أونكل في المستشفى. الموت يبدو على وجهها. جرس. آه يا وحشة توك ما افتكرت؟ لأ.. القهوة هناك، أيوه للمدام. لن تخرج على قدميها.

ينصت إلى عجينة الكلام حوله. الأصوات تتنافس كرءوس تتطاول لتبلغ الهواء وسط زحام خانق. حوارات مباشرة. نغمات مختلفة لرنين التليفونات المحمولة. استغرقته محاولات الفرز لاكتشاف من مع من؟ درجة خطورة حالة المريض الذي جاءوا لزيارته، ينتظر جراحة أم خرج منها أم يتلقى علاجاً؟ على نفقته أم يعالج على نفقة جهة ما؟ يرجحون له الشفاء أم يتوقعون الموت؟ درجة قرب كل من الحاضرين من مريضه، نسبة الكلام التي تتعلق بالمريض مباشرة إلى الموضوعات الأخرى. كادت السيجارة تلسع إصبعه. سحقها في المنفضة. خلّص نفسه بحرص ومضى إلى الغرفة.

انتبه لعودته عيسى الذي كان غافياً على سريره وبجواره الطاولة عليها طبقا فول وليمون وخبز بلدي بجوار عشاء المستشفى من الزبادي والبيض المسلوق والمربى.

– **فول!**

شهق رفعت مندهشاً. وضع عيسى سبابته على فمه بطلب الصمت. قال وهو يعصر نصف الليمونة في طبقه:

– **مؤامرة رتبتها مع فهيمة؛ أصل الثدييات.**

13

عاملا المشرحة فؤاد وثابت يدفعان أمامهما عربتهما بغطائها الاسطواني. يديرانها حتى تصبح محاذية لسرير عيسى، يزيحان الغطاء الذي يرتد إلى الخلف كاشفاً عن قلب المحارة المعدنية المجوفة. بالرافعة يميلان السرير. ويزيحان عيسى. يقفز رفعت ليستقبله، حتى لا يرتطم بالمعدن العاري، يصدر الجسد المتدحرج على المعدن صوتاً مكتوماً كصوت ارتطام وسادة مشبعة بالماء. يخرج أحدهما لفافة شاش يلثّم بها وجه عيسى، على شكل عصابة طولية بين الرأس والذقن. هكذا، حتى لا ينعوج. ما يشغلني ليس اعوجاج الفم، بل الفزع من أن العصابة القاسية ستحول دون تنفسه. يغلق الرجلان

المحارة المعدنية الكبيرة، ويقفز أحدهما يهيئ مقدمتها للخروج، بينما يدفع الآخر من الخلف. يتحركان بجسارة وتصميم، كما لو أنهما قد اعتادا موته منذ زمن طويل. نمضي في الممر الضيق الكالح بلون الأسمنت الذي أراه للمرة الأولى رغم وجودي هنا منذ ثلاث سنوات. أنحني مثلهما بسبب أنابيب التكييف المركزي الضخمة المعلقة بسقف الممر. قبل أن أختنق من الرائحة الدبقة التي تشبه رائحة الهواء القديم في دهاليز الهرم، نكون قد وصلنا إلى المصعد الخلفي الكبير الصدئ الذي يهبط بنا إلى الطابق الأرضي. تتصاعد رائحة الفينيك النفاذة كلما تقدمنا حتى نصل إلى اللافتة المعدنية الخضراء: "المشرحة". اللافتة فقط تنتمي إلى عالم المستشفى، الخط نفسه واللون الأزرق نفسه الذي للافتات الغرف وأقسام المستشفى الأخرى، لكن الغرفة كالحة بلا طلاء. سبقني الحمالان يدفعان الجثمان أمامهما إلى داخل الغرفة الكبيرة الباردة. توقفا أمام الثلاجة، فتح أحدهما الباب الضخم، مهيجاً البرودة النفاذة. على رفين تتمدد جثتان أخريان لرجلين يبدوان نائمين في سرير متعدد الطوابق. يقّرب ثابت العربة وينحنى فؤاد يعالج الرافعة حتى تصبح بمستوى الرف الخالي. يرفعان الغطاء عن الصدّفة ويميلانها باتجاه الثلاجة ويزيحان عيسى الذي يرتطم على وجهه بالرف محدثاً رنيناً مؤلماً.

أفاقا مأخوذين بصرخة سوسن المذعورة وصوت ارتطام الكتاب بالأرض. عاد رفعت إلى النوم سريعاً محكماً وضع الوسادة فوق رأسه. ربت عيسى على ركبتها مهدئاً.

- حلم فظيع.

قالت موضحة وانحنت تلتقط "**كتاب اللاطمأنينة**" لفرناندو بيسِّوا الذي أهداه لها عيسى. تحسست كفه المستريحة على ركبتها. وضعت الكتاب على الطاولة. أخذت تضغط يده في ركبتها. تفرق أصابعه وتجمعها.

- بم كنت تحلمين؟

- حرارتك جيدة، كيف تشعر الآن؟

- عَظَمة.

دست يدها في طوق الجلباب. وأخذت تعبث في شعر صدره. تدير أصابعها على الزبيبتين الصغيرتين اللتين تصلبتا تحت أصابعها. سرحت يده إلى ربلة ساقها عندما انحنت عليه تقبل جبينه. سحبته ليضطجع على الوسائد التي كومتها خلف رأسه. تخلصت منه بلطف وقامت إلى الثلاجة. أخرجت علبة عصير ودفعت إلى داخلها الماصة وأعطتها له. عادت إلى كرسيها. تناولت الكتاب وأنامته على فخذيها. وهي تربت عليه كطفل.

- كنت أتصوره مجرد هدية قيمة؛ لأنك أعدت تجليده بهذا الجلد الفاخر.

- والآن؟

لم ترد على سؤال عيسى الذي أخذ يشفط الجرعات الأخيرة من الماصة، ولكنها فتحت على الصفحة التي علّمتها بشريط القراءة الحريري الأصفر.

"أريد أن أحس كل شيء بكل الأشكال الممكنة وغير الممكنة؛ أن أعرف كيف أفكر بالأحاسيس وأحس بواسطة الأفكار، ألا يكون لي طموح إلا بواسطة الخيال، أن أتألم بدلال، أن أرى ما أراه بوضوح كيما أكتب بطريقة صحيحة؛ أن تكون معرفتي ممنهجة وداجية، .. وبالجملة أن أستخدم من الداخل الأحاسيس كلها، نازعا عنها القشور قشرة قشرة، حتى أصل إلى الله"[1].

أغلقت الكتاب وصمتت قليلا قبل أن تقول:

– **الآن عرفت قيمته؛ هذا الشاعر هو أنت. يشبهك تماماً، باستثناء أنه كتب مخاوفه من الإخفاق في الكتابة فأنجز كتاباً وأنت احتفظت بمخاوفك في رأسك.**

مد عيسى شفتيه دون أن يعلق. جذبت يده إلى فمها. قبلتها.

– **عندما تخرج من هنا ستكتب.**

– **عندما أخرج من هنا سأعيش.**

قال وقد جذب يدها المتعاشقة في يده يمرغها في جبينه.

---

[1] فيرناندو بيسوا "كتاب اللاطمأنينة" ترجمة المهدي أخريف ـــ منشورات وزارة الثقافة والاتصال 2001 ـــ المغرب

14

يحتضنها من الخلف تحت الملاءة الخفيفة. بدت ناعسة، بينما بدأ يمسِّد ظهرها بهدوء. حركة أصابعه تتحرك صاعدة نازلة تستكشف تضاريسها قبل أن تنزلق الملاءة من فوقهما. بحرص من يحاول إشعال عود الكبريت الأخير على جانب العلبة الرطب تبدأ أظافره في هرش ظهرها الناضح لقطرات العرق. تستدير إليه تمسك برأسه بين يديها. تنزلق تحته بخفة وتطوقه بساقيها ويشرعان في التلاعق واللهاث والتعرق المشترك وسط رنين إسورتيها المتوهجتين في يديها. يسكنان. تحرر خصره فيروح يبحث بساقيه عن ساقيها المتداعيتين. يضفر ساقاً بساقها، يريح جبهته على جبهتها. تسرح أصابعه

في شعرها. تمد يدها إلى أسفل وتخرجها تتحسس لزوجة البلل. تقرب يدها من عينيها فيبدو لون الدم في نور السيارات العابرة المتسرب من زجاج الغرفة.

هل كنت تعرف أنه يمتلك خيالاً على هذه الدرجة من الخلاعة عندما دخلت عليه حلمه؟ حلمه أم حلمك؟ لم يكن عيسى الذي تعرفه، عيسى الذي كنتم تسألونه عن امرأة فيتحدث بإسهاب عن رقتها، عن جمالها الخاص جداً عندما تشرب معه الشاي الأسود في مقهى متوار بإحدى حواري الجمالية، عن تناولها للمرة الأولى ساندويتشات الفول الملفوفة في أوراق الصحف. وعندما تداهمونه بالسؤال: ماذا عن النكاح؟ يقول أنتم عيال عديمو الحياء، ويلتزم الصمت. أيكما حلم؟! ليس هذا بالسؤال المهم، فحتى أحلامك لم تكن مهيأة لهذا اللهاث. حلم من؟! هل أنتما على قيد الحياة فعلا أم أنكما في العالم الآخر؟ لم تزلا هنا؟ الجلبة في الممر، ورنين التليفون في الغرف المجاورة تسمعه بوضوح.

هل يأتي الناس في الأحلام شباباً ومعافين تماماً هكذا؟ لم يكن هناك أي أثر لانتفاخ بطنه، هل لاحظت؟ لكن حوريات الجنة شقراوات تبدو أحشاؤهن من بين ضلوعهن الشفافة ولا يتعرقن، كما أن رجال الجنة لا يتهالكون هكذا، وليس في مائهم دم يلون أيدي شريكاتهم. هل يتعاطى عيسى المسكنات فتصاب أنت بالهذيان؟

بتأثير من إشعاع النظرة المتفحصة استيقظ عيسى حيوياً ومتعافياً بدرجة جعلت رفعت يقنعه بأخذ دوش ساخن. أحكم إغلاق باب الغرفة، أخرج له غياراً جديداً وساعده في خلع ملابسه. قاده إلى الحمّام متحاشياً النظر إلى جسده العاري الذي أصابه بالانقباض. هذا الجسد لا يمت بصلة لذلك الذي كان لعيسى على مدى أربعين عاماً والذي تراءى له الليلة قبل الفجر تحت هذيان الجسد اللامع. البطن المنتفخ فوق الساقين الضامرتين منحه شكل بطريق عجوز بعضو مدلدل يرشح الدم الوردي محدداً خط سيره دون أن يصرخ: يا شعب! كما كان يفعل دائماً عندما يعودون من بار الكاب دور مشياً إلى شقة السطوح في شبرا التي لم يكن معروفاً بالتحديد كم عدد سكانها ولا من كان مستأجرها الأول. يتدافع الآخرون إلى المرحاض بينما يتوجه عيسى إلى السور يطلق مثانته ويرسم أشكالا في الهواء بحركة حمامته التي لم يُعرف لها استخدام آخر، وهو يهتف: يا شعب! كانوا ينهرونه خوفاً من المشاكل لو أن أحدهم مر في تلك اللحظة وأدرك مصدر الماء المتدفق فوق رأسه.

– هذه بَرَكة، هكذا كان السيد البدوي يفعل مع المريدين الذين يبيتون تحت جداره انتظاراً للحظة تجليه ببوله المبارك.

ساعده رفعت على الوقوف في حوض القدم تحت الدوش، وضبط له حرارة المياه قبل أن يشير إليه بالخروج. جذب باب الحمام برفق وتركه مواربا. قرّب كرسياً على بعد خطوة

واحدة من باب الحمام. ألقى بأذنه مع عيسى، بينما أخذت عيناه تتابعان الأشكال التي يصنعها رشح خفيف للمياه بجدار المدخل. تكوينات البلل المغبر وبقع الطلاء المزال تصنع عدداً لانهائياً من الرسوم المتقنة حسب زاوية النظر والنقطة التي تبدأ منها العين؛ البقعة بكاملها تبدو رسماً لقافلة جمال يقودها صبي في المقدمة، في المنتصف بزاوية مائلة يمكن تمييز مصارعين في حالة اشتباك، الطرف القريب لسيدة ترتدي قبعة. شعر رفعت بإرهاق عينيه من متابعة الرسوم. عاد يتأمل مندهشاً تماسك وتميز الأسلوب الذي توصل إليه الماء الراشح من حمام الغرفة المجاورة، بينما يستهلك فنانون أعمارهم دون الوصول إلى أسلوبهم الخاص.

- غياب الحرية أم غياب الدأب ما منعك من بلوغ ما كنت تأمل؟

همهم بينما تركزت نظرته على الحركة المحمومة لسيقان بعوضة تحاول أن تتحسس موقعها على الجدار خلف قشرة هشة من الطلاء المتداعي. ارتدت نظرته مباشرة يتفحص يديه لعله يجد أثر التخمة الهائلة للبعوضة التي تبدو منتفخة بالدم. خرج عيسى محمراً تطوقه سحابة من البخار في ملابسه الداخلية وقد رد شعره إلى الوراء. باستثناء البطن المنتفخ وورق الكلينكس الذي أخذ يحكمه داخل سرواله لكي يتلقى قطرات الدم بدا طبيعياً تماماً. هذا هو عيسى الحقيقي ناصعاً يسير نحو دولابه. يستخرج جلباباً نظيفاً ويجلس على سريره

مبتسماً. عيناه سارحتان في اللانهائي كعيني تمثال فرعوني. هذا الشرود طريقته الدائمة في استعادة لحظة عاشها مع امرأة أحبها. هذا هو عيسى الحقيقي؛ عيسى المستعاد يجلس على سريره بابتسامة منسية.

– متى ذهبت سوسن؟

أجاب بإيماءة من شفتيه "لا أذكر" ودس يده تحت الوسادة مستخرجاً المظروف المرصع بعدد كبير من الطوابع التي تحمل صور فراشات احتلت نصفه.

– رسالة واحدة هذه أم أعمالها الكاملة؟

قال رفعت معابثاً، بينما يتلقف منه المظروف السميك ويشرع بفتحه.

15

الخميس 8 أغسطس (العاشرة ليلاً)

حبوبي الحلو ..

نرجع إلى الكتابة. لابد منها. لماذا لا يضعون تسعيرة خاصة لمكالمات العشاق؟ فاتورة هذا الشهر مائتا دولار، أي ضعف دخلي من الجامعة، بدأت أعطي دروساً في اللغة للعرب الذين يأتون هنا للتجارة. تاجر أحذية يملأ أصابعه بالخواتم يأتي هنا منذ ثلاث سنوات ولغته مثل الجزمة القديمة، لا أطيقه وأقول كله عشان عيسو. لكن أيضا الفلوس ليست كل المشكلة. دائماً أخاف من فكرة أن أطلبك وترد عليّ روز ببرودها القاتل (ولا تزعل حبوب من الخواجاية العبيطة إذا قلت بوقاحتها) لا

أطلبك إلا كلما أجن من حقيقة غيابك وتقتلني فكرة أنك تتكلم معي بحيادية لأنها إلى جوارك. هل عليّ أن أشكر الرب الذي منحك هذه القدرة على احتمال هذه الحياة؟ الواجب؟! أنا أنام وقميصك على صدري تزورني في الليل كشبح، أنام لأحلم بك وأنت بجسم حقيقي في السرير بجوار جسم آخر تكرهه؟ من حكم عليك بهذا السجن؟ آسفة حبوبي، لم أنس مثالك البذيء (هل تكتب هكذا؟) لا أحد يستطيع أن يقذف بوله إلى سطح الطابق السابع! أحترم حدود القدرة البشرية لكني لا أفهم كيف ترضى روحك الحرة (أنت فعلاً تمتلك روحاً مدهشة) كيف تكون هذه هي حدود قدرات روحك.

أسفة عيسو أعتذر منك.

أين أنت الآن حبوبي؟ في البيت أم في المقهى، أم مع فرفورة مصرية؟ نفسي أكلمك وأتأكد من وجودك في مكان ما من هذا الكوكب. أموت من فكرة أن كل تلك اللحظات لن تعود إلينا. أظن أن الحياة اليومية ليست أقل أهمية من حياة الروح والخيال. أكسب كثيراً من وجودي معك في حياة الخيال وفي كل لحظة أتوقع ظهورك من الحمام، من المطبخ، أو من الحديقة المقابلة. كنت جالسة الآن في الشرفة أتأمل القمر، وهزتني فكرة أنك تنادي من أسفل العمارة ، تطلعت إلى الشارع الخالي في هذه الساعة ودخلت مضطربة. شعرت أن الجنون لا يصيب العقل، بل اللحم التافه هذا والأحشاء والأظافر.. جرحت خديّ حبوب بأظافري من القلق وأدميت

شفتي من عضها. شربت بقايا نبيذ وبقايا فودكا، وأشعلت الشيشة.

الآن أسيبك حبوبي، الكتابة إليك موجعة؛ أقرب إلى الجلد. سأبدأ الوحدة ومحاولة التعايش معها، هل سأبقى هكذا مدى الحياة؟ عليك أن تفي بوعدك بزيارتي، مرة واحدة حبوبي لكي تؤنسن لي هواء هذا البيت.

الجمعة 9 (الثانية عشرة ليلاً)

تعرف حبوبي كنا فين بعد ما سبتك إمبارح ؟! في شارع المعز وأنت زعلان من المياه الجوفية التي سحبوها من تحت مسجد قلاوون وتركوها توسخ الشارع أمامه. أفهم قلقك وقرفك، عندنا سماسرة مثل الذين عندكم بالضبط، وعندنا فساد أيضاً وبطء في الإنجاز. لكن المشكلة أيضاً أن بلادكم تعاني من تخمة في الآثار؟ بلادكم مثقلة بالتاريخ حبوب. المهم أنت بعبقريتك حللت المشكلة، قلت نأخذ التلفريك إلى فوق وننزل في وسط الجامع على السلم الحجري الذي يؤدي إلى غرف السكن الداخلي للطلاب. اضحك! وصلنا بالتليفريك إلى فوق ولكننا لم نصل إلى السقف المجصص الهش الذي وقفنا فوقه من قبل وكان يرتعش بنا وأنا أتشبث بالقبة وأخاف أن تتفقش كقشرة بيضة وتهوي بي على الأرض. اندفع التلفريك فوصل إلى سطح الجبل (ستراه عندما تأتي) وأخذنا نمارس الحب بين

الأشجار، بينما يفرغ التليفريك كل مرة حمولة جديدة من العشاق، كلهم في التسعين أخذوا يحيوننا ضاحكين وهم يتجمعون في حلقة، في قوس ضخم من جهة واحدة، في الجهة الأخرى كانت الشجرة التي استندنا عليها، الأخيرة التي ينحدر بعدها الجبل إلى جرف ساحق. تعرف بماذا انتهى الحلم حبوبي؟

الكركدن أبو جهل جاء ووقف بين الناس وأخذ ينظر إلينا بغيظ وأنت لم تنتبه إليه. شق الصفوف وتقدم في المسافة الخالية بيننا وبين الناس، وأخذ يلقي علينا قصيدة صعبة لأحد الشعراء الجاهليين، ما العلاقة حبوبي بين أبو جهل وهؤلاء العباقرة القدامى، شئ مضحك طبعا! أنهى قصيدته وحاول أن يشق الصفوف. خفت أن يدفعنا إلى الهاوية ولكنه في الطريق إلينا تحول إلى بقعة سرعان ما تبددت في الهواء.

السبت 10 أغسطس (الخامسة بعد الظهر)

عيسو..

لماذا لم تأت أمس يا بخيل؟ كنت تعرف أنني سأستيقظ في الثامنة؟ كان عندنا امتحانات.. ماريبلا وزعتني على لجنة القسم الياباني، ووضعت زميلي جورج في الصيني، وبقي القسم العربي بدون أحد. عرفنا بعد ذلك أن الطلاب عانوا من عدم وجود أحد يشرح لهم بعض الأسئلة، وأنها منعت استخدام القاموس وهذا ضد القواعد، زعلت كثيراً ولن أترك الأمور

هكذا. تتصرف في الكلية مثلما يتصرف إقطاعي حقير في أراضيه.

سأجهز السيرة الذاتية، أتقدم كل يوم خطوة باتجاه فكرة الهجرة إلى كندا بسبب هؤلاء الوسخين الذين يرسمون للبلد صورة القرون الوسطى، أبوسك يا أجمل إقطاعي.

أنا الليلة عند أبي. جاء منذ لحظة بص عليّ وأنا أكتب. يتأمل الحرف العربي مثل سحر. سألني: تكتبين ثانية لحبيبك المصري؟ جاوبته بهزة من رأسي. سألني: من زمان ما كتب لك؟ شايف حبوب بابا يحس بي! أمي لا، قلت لها إنك ستتزوجني، قالت نعم مسلم ومن حقه زوجة أمريكية وأخرى فرنسية وواحدة عبيطة مجرية وأخذت تعد على أصابعها وقالت: آه خلاص باقي المصرية. أبوها خدم على سفينة في الأسطول التركي مع لبنانيين ومصريين. قبل ما يموت وأنا طفلة كان يشرح لي طريقة المسلمين في الصلاة والصيام، كان يحبكم جداً، وليس مثل أمي هذه الخوجاية العبيطة. ما رأيك حبوب صحيح تتجوزني؟

الأحد (11 أغسطس) التاسعة مساء

اضحك حبوب!

بيتنا انتقل إلى النوبة الأونطة بتاعة عبد الناصر! فاكر المضيفة الواسعة في أدندان الجديدة بكوم امبو؟ قال إيه هي صالة بيتنا وتنفتح فيها أبواب غرف كثيرة. أبي يجلس وأمامه

موقد النار دفس فيه كنكة القهوة. وأمي تسأله عني يقول لها هي في غرفتها مع حبيبها المصري. يا حقير! تنام معي في بيت أبي. ما بتنك.. سفش؟ (مش عارفة أقولها، شفت حبوب إن اللهجة الشامي أسهل من المصري؟ لو كنت شامي كنت أقولك ما بتستحي! سأقول لك بعدين عن بحثي حول استخدام المحكية في اللهجة المغربية.. المهم انك ما بتتكسفش. باب الغرفة مقفول، لكن الشباك مفتوح، والشمس فظيعة، نور باهر، وفي الشارع الذي نراه من فوق السرير كتاكيت صغيرة تجري وتنبش بين الحصى بحثاً عن حبوب قمح يلقي بها صبي يلهو معها.

صحوت بعد الظهر، خرجت مع أبي وحدنا، ماما تحججت بوجع أسنانها. شربنا بيرة على حافة البحيرة في حديقة الحب، بينما كان كلبنا يعبث مع كلبة بنت فامليا. في هذه الحديقة يتجمع الناس كل يوم أحد ليعرّفوا كلابهم بكلباتهم، وكثيراً ما يتعارف الملاك بعد ذلك! . تعرف حبوب، أظن أن هذا الرجل يفهم أشياء كثيرة. ستحبه جداً. صارحته اليوم للمرة الأولى بأنك من عمره. كل مرة أضيف له معلومة جديدة. بصراحة لم أقل إننا لا يمكن أن نتزوج. هو خائف عليّ طبعاً، ولكنه واحد فاهم. سكت لحظة وقال: إذن عندما يأتي سألاعبه بوكر، جهز نفسك حبوب.

أسيبك الآن بابا ينادي علي، هناك فيلم خيال علمي في التليفزيون وهو يحب أن يشاهد معي هذه الأفلام، الراجل الفاهم

أخرج كل محتويات باره على الترابيزة أمام التليفزيون وصنع طبقاً ضخماً من السلاطة. سأشرب في صحتك.

الاثنين (12) الواحدة صباحاً

لن أكتب لك شيئاً. طوال اليوم مجنونة من فكرة إنك بعيد. جنون لا يحله إلا التليفون. فكرت أطلبك ولكني قلت لن أفعل ذلك أبداً قبل أن تطلبني. نعم سأختبر قوة جنوني. سأعرف إن كنت أمثل نفس الشئ بالنسبة لك أو أنك تحاول أن تنساني وتعود إلى حياتك الرتيبة. صدقني لا أشعر بالغيرة منها. فقط أشعر بالحزن، هذه المرأة لم تكن بحاجة إليك يوماً. وأنت الذي عليه أن يتخذ القرار، أنت الذي تعرف سر التصاقك بها والذي لا يبرره مجرد الإحساس بالواجب. أنا لابد أن أخرج من كل هذا: لابد أن أقتلك بداخلي.

الثلاثاء (13) الثالثة ظهراً

أنا هنا، ولدت ثانية بصوتك. أبوس كل مليمتر فيك وأرجو ألا تزعل. كنت مجنونة أمس، بعد الجامعة جاء تاجر الأحذية، وجاءت طالبة تستعد للامتحان، فضل ونعمة، ثلاثون دولاراً لأربع ساعات، بعد أن غادرت الفتاة كنت شديدة الوحدة وأشعر بالإهانة. شربت كثيراً جداً. ولعنت حالي وكتبت لك ما كتبت ونمت. وأنا راجعة من الجامعة لم يطاوعني قلبي، مررت على البريد، كانت مفاجأتك المذهلة. وجدت في الصندوق إخطار

الطرد، لكن الطرد في دولاب موظف غير موجود، انتظرته حتى جاء. المغلف ممزق، هذا أسوأ شئ عندكم، لكن نشكر الرب، الشريط لم يقع! ما هذه المأثرة العشقية حبوبي؟ أستطيع الآن أن أنام مع صوتك لآخر العمر.

والفستان! ما هذا الذوق الراقي؟ أعجبني الموديل جداً، كم مرة اشتريت فساتين كهذا لإحدى المجنونات بك؟

كنت قد سمعت الشريط في السيارة، بكيت وضحكت حبوبي من تهديدك اللذيذ (إذا كان مقاسك سأظل أحبك وإن كان ضيقاً سأتزوجك) فكرت كثيراً أجربه أم لا وأنا خائفة من تهديدك بالزواج. قلت إنك لا يمكن أن تحب أرنوباً أسمن من هذا.

أروح أحضر الشيشة وأرجع لك حالاً.

عيسو.. أنا معك مرة أخرى.

الفستان إذن! قلت: أعمل ريجيم لأضعف قليلا وأنقذ نفسي من حكاية الزواج المملة في البلاد العربية والأوروبية والكونية. لابد أن يكون لائقاً لتظل تحبني، لكن بأية درجة من المناسبة؟ أنت لم تقل، استمعت إلى الشريط ثانية ولم يبق إلا أن أقيس الفستان بحجمي وجسدي الحالي و(شو ما صار يصير).

لبسته وبدأت في إغلاق الأزرار من تحت إلى فوق. في منطقة السيقان كان واسعاً. وفرحت لفكرة إمكانية أكل الفتة بالكوارع في الحسين دون أن تنفذ تهديدك، لكن كيف أوجه

مفعول الفتة إلى هذا الجزء فقط، لأن الزرارين في منطقة الهلال الخصيب كانا متباعدين تماماً، ولكنهما أغلقا على أية حال. إذن عليك الحب يا عيسو! قلت وأنا خائفة مع صعودي إلى منطقة السرة. أغلق زريها بسلام، واقتربت يدي من الثدي. هو زرار واحد يقرر مستقبلي، تجرأت وقربت طرفي الفستان، لم أشعر بأية مقاومة. كانا يرتعشان من الرغبة والانفعال، راودتهما رغبة أن تكون يدك التي تحبسهما داخل الفستان، ولحرقة الشوق إليك لاحت قبتان فوقهما صليبان صغيران. كان من الممكن أن تبلغ الحلمتان حجم كوكبين لا يحتويهما فستان. ولكن الشوق تحدد عند مستوى معقول عندما أبلغهما الهلال بأن من حقهما أكثر من اللمسة عندما يأتي الأوان. وأنا انتهزتها فرصة وأغلقت الزر. شيك جداً ولا أعرف أي خياط عندكم جرؤ على تصميم فستان يفتح بالكامل من الأمام، وهذا اللون. التجاور الجميل بين الأزرق والبني. سأتمدد فيه وأتركك لتنتقم مني. عندما تأتي سأريك كيف أفعله معك في غيابك، ألم تنتبه لذلك ولا مرة؟!

الأربعاء 14 (الثالثة فجراً)

المعسل قرب يخلص. الأرنب يستهلك الآن أوراق التبغ أكثر من الخس. بالصدفة حاولت أسمع ليلى مراد، لاتسألني لماذا؟ وأنا أدور على الشريط وجدت بالصدفة أم كلثوم "الأولة في الغرام". رحلتي إلى الموسيقى العربية قدتها أنت كقائد

أوركسترا ماهر. ما كنت تريد في النهاية تحقق. صوتها مأساوي حبوبي، فيه نوع من الخشونة القاسية، لكنه يصبح جميلا بعد منتصف الليل ويتعايش أكثر من صوت ليلى مراد مع كركرة الشيشة. النواح الذي كان يزعجني في البداية أصبحت أحبه تماماً، هي تعبر عن نوع مصري خاص جداً من الحزن. نوع خاص جداً من العشق أيضاً. حاولت أن أترجم الكلمات مرة للطلاب وشعرت بخيبة شديدة عندما رأيت تعبير الدهشة على وجوههم ووجوههن، هذه العبيطة لماذا تجدها عميقة وجميلة، إنها عواطف طفولية.

أظن حبوبي أن درجة الحرارة العاطفية عند الشعوب يجب أن تكون موضوع بحث. وكذلك مفهوم القالب الاجتماعي الذي يشكل عواطفنا طالما كنا مستقرين في ثقافتنا الأم. هل على كل طلابي وطالباتي أن يحبوا من مصر لكي يستوعبوا ؟ ماذا صنعت بي يا مصري يا وحش ؟ لماذا كانت أول جولاتك معي على محال الموسيقى وتشتري لي ليلى مراد وسيد درويش ونجاة الصغيرة؟ لماذا هؤلاء الذين لاتعرفهم خواجاية عبيطة وتقترب منهم من الداخل إلا ويصعبوا عليها طريق العودة؟ لماذا كنت مصراً على استخدام هذه الوسيلة اللئيمة طوال سنتين؟

أبوس روحك.

16

هذا المخادع! جعلكم تعيشون بوهم أنه رجل بلا آلة! لكن هذا الوله منها يدل على أن شيئاً قد حصل بينهما، واضح أنهما تضاجعا جيداً! هل كان يخدعكم مستثنيماً لدعاباتكم حول الطريقة العيسوية الروحانية؟ من يدري! ربما يعطي هذا الاشتعال الدليل على العكس؛ فنحن نتذكر ما لم ندركه. ما لم يولد لايموت. التذكارات التي احتفظت بها من نساء ضاجعتهن مراراً كانت تذكرك بصاحباتها لفترة محدودة. مشبك شعر، ثمالة عطر، خصلة من شعر العانة، رمش مخضب بالكحل، سروال، حمالة صدر. جمعت الكثير من الأشياء التي كانت سريعاً ما تختلط وتعجز عن تذكيرك بصاحباتها، بينما تستطيع

حتى هذه اللحظة أن ترسم المغربية خديجة التي فرحت بها كلفية في رحلتك إلى غرناطة؟

كنت في الحمراء، في طريقك إلى قصر أبي عبدالله بينما كانت خارجة لتوها من القصر. لم تكن شديدة الجاذبية، سمراء، نحيفة، بالغة الطول، ومحنية قليلا إلى الأمام كعلامة استفهام رقيقة. تلاقت عيونكما قبل أن تمضيا كل في اتجاهه. بعد خطوتين التفت وراءك لتجدها واقفة تتطلع هي الأخرى باتجاهك بعد أن قطعت ذات المسافة. ابتسمت لها فابتسمت. تحركت ببطء صياد يعالج سمكة ثقيلة وقعت في شصه. سرت وراءها في ممرات غابة الحمراء تستشعر من خلف ظهرها ابتسامتها في وجهها المتجه إلى الأرض كأنها تبحث عن شئ أضاعته، حتى إذا وصلت إلى نهاية ممر مسدود، أزاحت بيديها سياج العشب لتكشف عن السور الحجري الذي تنتهي به الهضبة وتبدأ بعده هاوية عميقة. جلست بين الزرع، وأخذت تبتسم.

كانت قد أمضت هناك ستة أشهر تدريبية على جراحة العيون ومن المفترض أن تسافر في اليوم التالي. أخذتما تتحاوران حول كل شئ وأي شئ قبل أن تقوم وتحتضنك بلطف. قلت: تعالي معي إلى قصر أبي عبد الله. قالت: لن يسمحوا لي بالدخول مرة ثانية، أخذوا بطاقة الزيارة. قلت معي بطاقتي، ثم مالهم الأسبان، إنه قصر أجدادنا!

ضحكت وقامت، تسللتما من بين طابورين للدخول، تتقدمها وقد تشابكت أصابعكما فوق رؤوس الآخرين الذين كانوا ينحنون للمرور تحت ذراعيكما المشتبكتين دون أن يفصلوا بينكما. على البوابة قلت لرجال الأمن: معي وثيقة ميراث وهي عرضت شراء القصر ولابد أن تعاينه. ابتسموا وتركوها تمر معك إلى الداخل. أخذتما تتهجيان معا الآيات التي زينت الجدران تقرؤها من ذاكرتك بعد العثور على الكلمة المفتاح، أكثر مما تقرأ من الخط المتشابك الذي لم يضمن تماسكه عدم تحلل الدولة العربية هناك. في المساء مرت عليك بالفندق الصغير الذي نزلت به بالبيازين. كنت جاهزا في الموعد. أخذتما تدوران بين المقاهي التي تقدم معظمها الشاي الأخضر بالنعناع على الطريقة المغربية. أحدها يحمل اسم زرياب، الموسيقي العربي الأسطورة. المقهى الذي تفصله عن الحارة ستائر من الخرز الملون يديره مغربي مع زوجته الإسبانية ومعهما صديق مصري. المغربي على العود والمصري على القانون ، يغنيان الملحون المغربي والمواويل المصرية. بادرت بمطلع أغنية لعبد الحليم حافظ فجاوبك المصري. انتبه الزبائن لموقعكما، فأخذ المغنيان يختبرانك بمطالع جديدة وتجاوبهما في كل مرة. أنت نفسك لم تكن تعرف أنك تختزن هذا العدد من الأغنيات. بقية الليلة قضتها معها بين صالات الديسكو التي اتسعت لها البنايات العربية الصغيرة كما في معجزة. ومع نور الفجر تعانقتما لتمضي إلى فندقها تحمل حقيبتها إلى المطار

وتمضي أنت إلى النوم. تراها أمامك الآن بنظرتها المستطلعة الداعية وهي تستدرجك إلى المكان بالممر المتجمل بالصمت الجليل رغم جلبة الزوار. تحس سخونة نهدها الصغير تضغطه في صدرك بينما يحمي خداع الضوء المتقلب بجنون تعثر قدميك عندما تحولت صالة الرقص إلى فالس ناعم. عندي صديق ينتظرني في تطوان. كنت فقط أحتاج إلى صحبة في هذه الليلة الأخيرة وأنت أنقذتني من وحشتها، قالت وهي تودعك أمام المرقص في ذاك الصباح الباكر تحت بصر عمال القمامة الذين أخذوا يفرغون الصندوق الطافح بشراهة البشر الليليين.

أحس رفعت بعينيه تغيمان ورأسه كالمكبوش بمخلب من أثر الضغط أو أثر الذكرى؟ لا يعرف. تذكر أنه لم يتناول حبة الضغط هذا الصباح. قام متمهلاً إلى الدولاب، أخرج الحبة. ألقى بها في فمه واتجه إلى الثلاجة. جرع من زجاجة الماء التي يحتفظ بها لنفسه. وعاد ليستلقي على سريره شاعراً بالفراغ وهو يتأمل سرير عيسى الشاغر ببقعة الدم في منتصفه تماماً. هل سيعود ليحتل هذا السرير مجدداً أم يسحبونه من قسم المناظير إلى مصيره؟ سيعود، ربما يتعافى فعلاً، من يدري! إننا نموت عندما نريد ومن الواضح أن عيسى تراجع عن قراره. ربما يجدي العلاج فعلاً ويخرج من هنا سليماً ويعيش ليوصلني أنا إلى الأمان عندما تأتي لحظة إقلاعي. ليست الكتابة فقط ما تصنع هذه المفاجآت، الحياة أيضاً تفعلها.

الوشيش المكتوم لعجلة النقالة يفرك كاوتشوك أرضية الممر. كانت قدما عيسى أول ما دخل الغرفة، مكشوفتان بسبب انزياح الملاءة التي دثرته حتى عنقه. استبقت الممرضة التي ترتدي زي غرفة العمليات الأخضر رفيقها وأخذت تساعده في سحب النقالة وتوجيهها حتى أصبحت بحذاء السرير. وقف رفعت يتأمل عيني صديقه المسبلتين واللهاث الخافت من فمه. ضبط الرجل ارتفاع النقالة وبدأ في زحزحة عيسى إلى السرير بينما أخذت الممرضة مع رفعت يسحبانه من الجهة الأخرى.

– **سينام ثلاث ساعات، فلا تقلق. إنه أثر البنج.**

سحب الرجل النقالة وانتظر على الباب بينما توقفت الممرضة.

– **ألف سلامة يا بيه.**

السيم المستخدم هنا، والذي اعتاده رفعت. أخرج عشرة جنيهات. تلقفتها ودستها في جيبها بينما بدأ الرجل في التحرك بعدما رمق ما حصلت عليه زميلته.

أخذ رفعت يتأمل صدر عيسى في حركة تنفسه البطيئة بالتوتر نفسه الذي يحسه تجاه لاعب سيرك أثناء تراقصه الهش على الحبال. فكر في أول طريقة لامتصاص انفعاله. أخرج من درج الكوميدينو رواية ماركيز "مائة عام من العزلة" التي لم تفارقه منذ صدور ترجمتها العربية بعد أن أصابت عيسى

بالهذيان. "**كاتب مسخرة كتب كل شيء، لم يدع شيئاً لكاتب من بعده!**" قال في تلك الليلة عندما طرق باب رفعت في ساعة متأخرة، وتجاوزه إلى الداخل مواصلا هذيانه بالمس الشيطاني نفسه الذي انتقل من الغجري الجوال ملكيادس إلى خوسيه أركاديو بوين ديا. "**لقد أنهى الموضوع، أنهى الموضوع تماماً، ولن تكتبوا بعد يا أولاد الهرمة إن كان عندكم شيء من الحياء**". وكان رفعت يستمع نصف نائم قبل أن يدخل إلى المطبخ ويضع قطعاً من الفحم على موقد الغاز، ويجهز نصبة الشيشة معمراً الحجارة بالمعسل مع قدر سنّة من الحشيش في كل منها دون أن يتوقف عيسى عن الكلام. "**أي ذكاء للكتابة! ضرب من نوح مختل يبدأ الحياة في ماكوندو الخيالية المرحة العنيدة في تمسكها بالمآسي والآلام**". منذ تلك الليلة لم يسترد نسخته التي قرأها رفعت مراراً طوال ثلاث سنوات لم ينشر فيها جديداً، دون أن يطلع غير عيسى على استنتاجه. "**معك حق.. نحن لا نكتب إلا بما نملك من صفاقة**". ولكنه استطاع بعد ذلك أن ينشر رواية جديدة، مؤكداً أن الوصول إلى النموذج الُمرْضي لا يتم إلا عبر المحاولات غير المرضية. لقد سوى الله الكثير من الثعابين والسحالي والأسمال والجراد والقرود قبل أن يشكل من الطينة ذاتها آدم ويتركه يجف على هذه الصورة.

فتح عيسى عينيه وأخذ يتحسس بطنه مندهشاً عندما لم يجد الكرش الذي واصل انتفاخه بسرعة أكبر مع المحاليل والدم الذي يضخ إلى جسده. ابتسم بارتياح.

- **عظمة!**

قال وهو ينظر إلى عيني رفعت الذي قام ليرى إن كان يريد شيئاً. لوح بإشارة النفي وهو يستعيد هول ما مر به في عملية شفط المياه التي خضع لها مع المنظار.

طرقة خفيفة على الباب ثم دخل الطبيب الأربعيني الوسيم، وخلفه ممرضة تحمل كيساً جديداً من الدم. أمسك بيد عيسى وأغمض عينيه وأخذ يعد، بينما كانت الممرضة تعلق الكيس في الحامل. أفلت الطبيب اليد فسقطت على السرير. تناولها وأسقطها مرة أخرى.

- **ممتاز.**

قال وأخلى مكانه للممرضة التي تناولت نفس اليد. تأملت اللون الأزرق حول السوار البلاستيكي. تركتها ومالت تلتقط اليد الأخرى لتشبك في سوارها الأنبوب.

- **هذه أرقامي، اتصل بي في أي وقت.**

قال الطبيب وهو يعطي كارته لرفعت قبل أن يتقدم الممرضة إلى الباب خارجين. قرّب رفعت الكرسي من سرير عيسى، وجلس يراقب وجهه الناعس.

- **بروفة أخرى على خروج الروح، لــ .. كن أفضل.**

خرجت الكلمات بطيئة واهنة. طبطب رفعت على صدره مؤمناً على كلامه حتى لا يجهد نفسه بمحاولة الإضافة. راح سريعاً في النوم بينما بقي فمه مفتوحاً كأنه يتهيأ للكلام.

17

البقعة المعشبة جزيرة بمساحة الكوفرتة التي افترشناها في عرض النهير. تضاجعنا لتونا في الغابة وانحدرنا عشوائياً لهذا الاتجاه في حركة انسحاب أمام تقدم الأقدام التي قطعت متعتنا عندما صار وقعها قريباً من لهاثنا. فتنتني الجزيرة التي رأيتها مكاناً مناسباً تماماً ليس لأنه يتطابق مع ميولي بل لكونه متضاداً تماماً مع حبي للانطواء وكراهيتي للاستعراض. صحت مندهشاً. سنجلس هنا. عدنا إلى السيارة عبر الغابة، حملت الصندوق البلاستيكي العازل للحرارة المثقل بالخبز والطماطم والبصل والفلفل واللحم المتبل من الأمس وزجاجات البيرة وزجاجة الشمبانيا، بينما حملت سميرا الكوفرتة في يد

وشبكة الشواء في الأخرى. أخذت أتذبذب وأنا أتقافز بحملي فوق الأحجار التي عبرنا فوقها ماء المجرى الضحل. عدت أحتطب من جذوع الأشجار الجافة في ظلام السرو. سميرا تضع الزجاجات في عرض المجرى بينما أناولها أحجاراً لتثبيتها في الماء المنحدر. خمنت أنها لجأت إلى هذه الطريقة في التبريد كثيراً. وشعرت بنوع من الفضول لأعرف مع من كانت تفعل ذلك من قبل؟ ومع ذلك لا أنكر أنني لم أشعر من قبل بروحي سعيدة وخفيفة إلى هذا الحد. أشعلنا النار وحول جمرها وضعنا أحجاراً ثلاثة حملت شبكة الشي، وأخذنا نأكل ونشرب بنهم حتى تسلل الخدر اللذيذ إلى بدني. وهي التي لاتتعب استقبلت رأسي على فخذها. إحدى يدي تتدفأ في ثنية ركبتها والأخرى تتحسس نعومة يدها. ها أنا على أبواب النوم كما لو على خشبة مسرح. المتمشون أزواجاً على الضفة الأخرى للنهير لا يستطيعون تحاشي النظر إلينا، بعضهم يلوح لنا، بعضهم يلقي بقبلة في الهواء. وأنا سعيد بنفسي مرئياً ومحسوداً. جلدي المنتشي في مرونة جلد ثعبان؛ ينكمش بالبرودة السارية في الهواء ولا يلبث أن يتمدد تحت شعاع واهن نجح في التسلل من فاصل بين غيمتين، فتستكين أصابعي للدفء وتكف عن العبث بكفها.

تخلصت سوسن من يد عيسى برفق وعادت إلى الحقيبة التي تركتها على الطاولة فور دخولها. أخرجت برطمانا من

العسل الأسود، وثلاث حبات من الرمان وثلاث تفاحات وطبقاً من الكريز مغلفاً وبضعة أصابع من الموز، ورزمة من الأطباق الورقية وسكينا صغيراً. استدارت لتضع ما أحضرت بثلاجة الغرفة بعد أن احتفظت بالسكين ورمانة في أحد الأطباق.

- يحتاج إلى الكثير من الحديد لتعويض الدم الذي ينزفه.

قالت بينما أخذت تقشر الرمانة وتفرطها في الطبق دون أن تنظر إلى رفعت الذي أخذ يتأملها. بدت في بنطلون الجينز والبلوزة الضيقة أنحف مما تبدو في البالطو الأبيض. وقد نثرت شعرها الفاحم الذي وصل إلى خصرها. لم يتعرف عليها في البداية عندما دخلت تحمل حقيبة بلاستيكية عليها شعار سلسلة سوبرماركت شهيرة، لكن عيسى نظر بتهلل صبغ وجهه الشاحب بالأحمر.

انتهت من عملها سريعاً وناولت رفعت طبق القشر ليفرغه في المهملات. عادت إلى جلستها بجوار عيسى. ترفع حبات الرمان بين أصابعها وتنثرها فوق فمه وقد فتحه استجابة للعبتها الطفولية، وكلما أشار إليها بيده علامة الاكتفاء، تربت على صدرها ترجياً فيفتح فمه من جديد حتى انتهت اللعبة.

- خلاص؛ بح.

قالت فجاوبها عيسى سعيداً: **مملكة!**

أخذت تعبث بشعره ثم نظرت في ساعتها وهبت واقفة.

– موعد تسليم الوردية.

لوح لها عيسى، وحمل نفسه على القعود. ثنى وسادته وطبَّق البطانية ووضعها فوقها. اضطجع وأخذ يصفر لحناً يعود إلى مرحلة الشباب. نظر إلى الساعة مندهشاً.

– إنها التاسعة! هات لنا إذاعة أم كلثوم.

أدار رفعت المؤشر على الإذاعة محاولاً ضبط الوشيش المصاحب لصوت أم كلثوم تصدح بقصيدة بيرم التونسي "شمس الأصيل". رفع سماعة التليفون وأوصى على كوبي شاي. التفت ليرى أثر مبادرته على وجه عيسى الذي طعن الهواء بإبهامه استحساناً. جر رفعت كرسياً وجلس بجواره.

– سنعيش ستيناً أخرى، ستيناً مختلفة تماماً، لن تخدعني فيها، أليس كذلك؟

– بخصوص ماذا؟

– بخصوص سميرا مثلاً!

رفع عيسى يده مرعشاً الوسطى، وانبسط وجهه بضحكة هادرة ولكن دون صوت.

18

النيل يبدو ساهياً ومسالماً كوجه عيسى، يحتضن المراكب الصغيرة الراسية أمام الجزيرة التي يدوّم فوقها دخان الكوانين في هذه الساعة المبكرة، يعكر هدوء الفيلات والقصور المتناثرة على مسافات متباعدة. لابد أنها الساعة التي يذهب فيها سكان القصور إلى النوم، هؤلاء الذين جاءوا بملايينهم إلى الجزيرة فأزعجوها دون أن تمنحهم الهدوء؛ فرضوا عليها عدم الانسجام بتنافرهم مع سكانها وتنافر مبانيهم الفخمة مع أكواخ الطين. توقف مشروع الطرد الجماعي فيما يبدو كما نشرت الصحيفة. أفسحوا المجال لبعض المقالات المتعاطفة. ولكنهم لن يرجعوا عما يريدون. هذه القصور ستبدأ في التكاثر بوتيرة

متصاعدة مثل خلايا السرطان قبل أن تلتهم الخلايا القديمة تماماً. الفيلات والقصور أول المرض، خلايا المراحل المتأخرة ستكون ناطحات سحاب من تلك الخرابات الزجاجية الفاخرة التي تنمو في كل مكان من المدينة. ليتهم يقتصرون على تبوير جزيرة! إنها الغريزة الأولى التي أهملها فرويد لصالح الجنس تعمل بكل قوتها: غريزة الجوع هي التي تحرك هؤلاء. جوع طفولاتهم البائسة الذي يبقى دون إشباع ويقود حتماً إلى غريزة الموت. موت الجميع للأسف.

الموت! أين هو؟!

محظوظ من يموت الآن. محظوظ عيسى لأن خلاياه تنقسم بسرعة أكبر من سرعة نمو خلايا الجوع لديهم. غداً أو بعد غد يبدأ بعض أعضائه بالتمرد، يتوقف الكبد أو القلب أو الرئتين أو يتصرف أحد هذه الأعضاء من تلقاء ذاته فيفقد جسمه نظامه. أليس هذا ببساطة هو الموت؟ النّهابون يتصرفون بفوضى ولا يخفون ذلك، يعلنون توحشهم في الرخام الذي يبطنون به أسوارهم العالية، في ألوان مبانيهم التي يصبغونها بالبنفسجي والوردي وتكوينات منهما تحاكي صورة الخلايا السرطانية في شرائح أشعة عيسى. العطب يزحف على الجسم كله لأن القلب يعمل في خدمة نفسه ويرفض أن يضخ الدم إلى الأعضاء الأخرى. سعيد أنت يا عيسى، أعفيت نفسك مبكراً والآن يعفيك الموت من هول التداعي.

بسبب قطرات الماء المتكثف في الخارج على زجاج الواجهة خمن رفعت حجم الحرارة ودرجة الرطوبة في هذه الساعة المبكرة؛ مناخ أغسطس المميت الذي كاد ينساه في هذا المنتجع. السيارات تجري على الكورنيش كما في فراغ، كأنها السيارات نفسها، يراها كلما نظر، في دوران أبدي حول المستشفى. سرب من الغربان يحلق نحو الشرفة ويعود ناعباً ملهوفاً إلى شجرة التين الكاوتشوكي الساكنة. قام يجر ساقيه إلى الحمام ليبدأ طقوسه الصباحية بالبطء ذاته ولكن دون لذة.

خرج من الحمام عندما كانت عجلات ترولي النظافة تفرك على أرضية مدخل الغرفة، بالدلو والممسحة وصندوق القمامة تدفعه نبيهة؛ أصل الثدييات كما أسماها عيسى.

– هذه مسخرة، في أي فندق رأيت عمال النظافة يهجمون هكذا على الغرف في وجود النزلاء؟!

قال عيسى الذي فتح عينيه في مزاج طيب.

– معك حق، الخدمة هنا في منتهى السوء!

قال رفعت، بينما أشار لها بالدخول. رقَّصت ثدييها وقد حملتهما على يديها وهي تعيد ما قاله عيسى بسخرية. أبقت الترولى في المدخل وحملت الدلو بالممسحة. اتجهت إلى آخر الغرفة وبدأت في المسح باتجاه الخارج. اعتدل عيسى وأخذ ينبهها إلى الزوايا الخفية بإشارات من يمناه محافظاً على المدى المناسب لطول الأنبوب المربوط إلى يده اليسرى.

- **عندنا حفلة الليلة.**

قال وهو يقرص فخذها، فولت هاربة منه. دخلت إلى الحمّام، عادت بالسلة الصغيرة، أفرغتها في سلتها، ثم حملت الدلو بالممسحة و غابت في الحمام مرة أخرى، وعندما خرجت أعادت الدلو بالممسحة إلى الترولي. وأخرجت ملاءتين نظيفتين طوحتهما على سرير رفعت الذي وقف يتطلع إلى الخارج من بين شرائح الستارة البلاستيكية. توجهت إلى سريره، استبدلت ملاءته وكورت القديمة وألقت بها فوق الترولي، وأخذت تجر ملاءة عيسى من تحته وهو مستمتع بانزلاقه حتى الحافة. توقفت عن الشد حتى تمكن من النزول مستنداً إلى كتفها. استبدلت ملاءته بسرعة وساعدته في العودة إلى السرير. همت بالخروج لكن عيسى استوقفها مشيراً لها بالجلوس على أحد المقاعد الجلدية السوداء بينما تداعى مرة أخرى متمدداً في مواجهتها.

- **ماذا صنعت مع نصّاب الشقة؟**

- **ولا شئ والله يا بيه، هرب.**

- **هرب للخارج؟**

تضحك نبيهة.

- **خارج؟! الخارج للحرامية الكبار، هرب للداخل. هي ورقة بعشرين والعسكري يرجع يقول "غير موجود".**

- **على العموم اجمدي.**

- أجمد؟ طبعاً أجمد، زوجي انشل لما ضاعت تحويشتنا الأولى في نصب توظيف الأموال. أنا لأ! مش ناوية لأني راجل البيت دي الوقت.

عندما رأت التأثر على وجه عيسى، هبت واقفة وقالت موجهة كلامها إلى رفعت:

- ألف سلامة يابيه، ربنا يشفي لك أبوك!

تدفقت ضحكة عيسى صاخبة كزجاج يتكسر، بينما مد لها رفعت يده بخمسة جنيهات مبتسماً. وصوب جهاز التحكم على التليفزيون. وأخذ يتنقل قلقاً بين برامج الأطفال.

عندما بدأ عيسى يئن أنيناً متخافتاً، طلب رفعت رئيسة التمريض. قالت إنها سترسل بنتاً حالاً. جاءت ممرضة نحيفة وقصيرة تضع تاجها فوق حجاب محكم حول وجهها الطفولي. شبَّت على أصابع قدميها لتتبين حجم المتبقي في الكيس. أخذت تتأمل سريان السائل وهي تعدل من التواء الأنبوب. شبّت مرة أخرى، رشقت إبرة المخدر وأفرغتها في كيس المحلول. قامت بقياس الضغط وأخذت تتلو أدعية بهمهمات غير مسموعة وهي تسحب كمية من الدم في حقنة أفرغتها في أنبوبة وأعطتها رقماً.

- كل يوم؟! إنكم تستنفدون الكمية المتبقية من دمه.

قال رفعت، ولم تزد الممرضة على تذكيره بأنها تنفذ النظام الذي وضعه الأطباء. حملت أدواتها وانسحبت في هدوء

بينما بدأ أنين عيسى في التباطؤ، حتى نام تماماً. أخذ رفعت ينعس ويفيق بجواره أمام برنامج للأطفال.

كشفت فرجة الباب عن مقدمة ترولي الإفطار. جلس رفعت في سريره وأشار إلى الرجل الذي صار بكامله في الداخل لكي يلزم الهدوء، سأله الرجل بإشارة من يده إن كانا يريدان شيئاً آخر، شكره بإشارة النفي. لم ينصرف الرجل. مد يده بجنيهين، التقطهما منه ورفع يده شاكراً وهو ينسحب بظهره حتى خرج وأغلق الباب وراءه. انتبه رفعت إلى الجلبة في الطرقات؛ أخذ يتسلى باختبار قوة سمعه محاولا التقاط وقع الأحذية النسائية المختالة، من جرجرة الأحذية المجهدة، دهس عجلات الترولي التي تحمل مريضاً خارجاً من غرفته أو عائداً إليها، من الأزيز الخفيف الذي يشبه صياح صرصار الحقل لعجلات ترولي يحمل صينية إفطار أو أدوات طبية، حوارات الزوار التي تصله في شكل همهمة ذكرته بساعات الزيارة في السجن.

لم يختلف الأمر كثيراً؛ فهو هنا أيضاً لا ينتظر زائرين. كانت الزيارة هناك حق المسجونين الجنائيين فقط الذين عقد مع بعضهم صداقات حميمة، لم يتصور في ذلك الوقت أنها ستنتهي ذات يوم. هنا لا ينتظر أحداً أيضاً، لسبب مختلف حيث لم يعد هناك في الخارج من ينتظرهما.

ألقى نظرة على المحلول الذي أوشك على النفاد. قام وأغلق المحبس محرراً معصم عيسى من الأنبوب. نظر إليه وتلفت حوله باندهاش من يستغرب الموقف ولم يقل شيئاً.

- الإفطار جاء.. تقوم نأكل؟

لم يرد، لكنه مد بوزه لامبالياً وجلس مدلياً ساقيه يستوعب الغرفة قبل أن يحسس بقدميه بحثاً عن خفه تحت السرير. التقطه بأصابع قدميه وقام إلى الحمام. تابع رفعت حركته الواهنة بتحفز للمساعدة، وعندما اطمأن على نجاحه تناول الجريدة المطوية وألقى نظرة غير مبالية على عناوين النصف الأعلى"**زيادة حصص الدقيق المدعوم لتوفير الرغيف.. رفع إنتاج الأعلاف للسيطرة على أسعار اللحوم**". استقبل العنوان الركيك لمقال أبي جهل كصفعة فبرم الصحيفة وأسقطها في سلة المهملات تحت سريره، بينما تصله تنهدات الارتياح التي يطلقها عيسى عقب كل ضرطة. عندما خرج كان يسير متمهلاً، ملقياً بأذنه إلى الخارج حيث عجينة الأصوات الدبقة من دبيب الأقدام وعبارات الوداع التي تأتي من الممر. جلس على الكرسي أمام المائدة. حدق في رفعت وسأله.

- أليس غريباً أن أحداً منهم لم يتصل؟ رءوف في أمريكا، طيب أين جميل، والواد سلامة وشوقي؟!

لم يعلق رفعت وبدأ متمهلاً في نزع الغطاءين البلاستيكيين عن صنيتي الطعام.

19

كنت تقرأ. ماذا كان الكتاب؟ ليس مهماً الآن، عدم القدرة على التذكر توجع أكثر من هذه الإبرة المغروسة في معصمك. كنت تقرأ واللحظة الفاصلة كانت عندما ابيضت الصفحة تماماً، نظرت إلى عيسى ومحتويات الغرفة من حولك. لم يكن ثمة شئ حقيقي. صرت وسط لوحة تأثيرية. بعد ذلك وأنت تنسحب كالهابط في أسانسير يهوي سريعاً رأيت حياتك في لوحة رأسية متتابعة الكادرات من الطفل الذي يزحف إلى الجثة الباردة الممددة. تاريخك كله في لوحة واحدة دون إحساس بالزحام أو الصخب. ستون عاماً في لوحة؟! لو تتمكن من رسمها بالرهافة اللونية التي تجلت لك في تلك الخطفة لكانت أكثر إرضاء من

رواياتك العشرين التي كتبتها تعويضاً عن استعصاء الرسم عليك. ثم ساد الظلام التام كلحظة انتهاء الفيلم. إنها مسألة شديدة البساطة. فجأة تصبح غير موجود. المشكلة أنك عدت من ذلك البرزخ، بعد أن خف جسدك وتلاشى، عاد الثقل يسري في الجسد ويعلن عن وجوده. عدت لماذا؟ ألم يكن ذلك أفضل من أن تموت وحدك وتتفسخ جثتك وحيدة قبل أن ينتبه الجيران؟ بلا شك سيسعدهم التلصص على حياتك التي عشتها بجوارهم دون أن يعرفوا شيئاً عنها، ودون أن يستريحوا لك أو لزوارك وزائراتك. مرة واحدة وإلى الأبد ستفتح النسوة أعينهن على اتساعها بدلاً من إنفاق الوقت في تضييق حدقاتهن وراء مناظير الأبواب لمراقبة الصاعدين والهابطين. ستزوغ أعينهن بسبب وجود الرجال وهن ينظرن إلى لوحات الأصدقاء ومستنسخات جوجان وبيكاسو ودالي العارية. عندما تتسلق العيون الجدران في النظرة الثانية هل سترى الأجساد الجميلة أقل عرياً؟ هل ستدرك الفرق بين جوهر الجمال في خطوط محمود سعيد على جسد "ذات الهفهاف الأسود" وبين جسد روز في خطوطك الفجة الأولى. هل سيدركون قوة التدمير في هذه المرأة التي أطفأت ولعك بالرسم وجعلت أربع سنوات من دراسة الفن عديمة النفع؟

العيون ستبحث عن فضولها في ركن آخر. يجذبها البار الصغير لا المكتبة، يتأملون زجاجات الخمر الفارغة والممتلئة. أحدهم يتمنى أن يستخلص لنفسه زجاجة الويسكي التي لم تفتح

بعد. النساء يبدأن شجاراً مع أزواجهن الذين يريدون إلقاء زجاجات الفودكا المميزة في القمامة بينما هي تصلح لاستخدامها لتبريد المياه في الثلاجات. عبد الصبور سيداعب لحيته قبل أن يستغفر ويعلن أن الصلاة عليك والمشاركة في تشييعك حرام حرمة الأخت على أخيها! تراهم يختلفون معه وترتفع الأصوات ولن يصلوا إلى أحد من أقربائك الذين انقطعت صلتك بآبائهم. هل سيتصدق أحدهم بدفنك في مقابر أسرته؟ لماذا لم تفكر في هذا من قبل؟ لماذا أعادوك من هذه الحافة؟ أطرف مقلب كان عيسى سيشربه! "آخر مسخرة" سيقول وهو ينظر إلى جثتك الممددة ولا يعرف كيف يتصرف قبل أن يقرر النزول بك إلى قريته ليدفنك مع أبيه الظريف ذاك. لماذا لم يخطر لك من قبل أن تطلب هذا من عيسى؟ لماذا كنت تتصرف كما لو أنه الراحل قبلك حتماً؟ إن الموت لا يستند إلى أي منطق عندما يختار بين صحيح ومريض فماذا لو كان الاختيار بين مريضين؟! كنت ستلحق بشوقي في تفاهة ميتته. كم مليوناً من البشر يموتون في غيبوبة سكر كهذه وكم مليوناً استجابوا للعلاج من السرطان؟ ليس هناك من منطق. الموت عشوائي لا يحتاج إلى سبب ولايتخير الأوقات المناسبة.

- ما الحكاية؟ أصبح لدينا مريضان بدلا من اثنين من الأصحاء كما تعشمنا!

قال الطبيب الوسيم مصطفى قبل أن يمسك بيد رفعت ويغمض عينيه ويأخذ بالعد. فَرَدَ أصابع رفعت وطلب منه أن يطويها لتتعاشق مع أصابعه وأخذ يجذبه ويطلب منه أن يفعل الشيء نفسه.

- ممتاز.

ثم موجهاً كلامه إلى عيسى.

- عمو! شد حيلك سنبدأ العلاج غداً.

تحركت شفتا عيسى بابتسامة دون أن يفتحهما. في انسحابه المتعجل أطاح الطبيب باقة ورد أطلت في مدخل الغرفة. التقطها معتذراً للسيدة والفتاة اللتين وقفتا تتأملان في دهشة الرجلين على سريريهما وقد تدلى إلى أحدهما خيط محلول والثاني خيط دم.

- كنت تريد شوقي؟ آهه أجمل ما في شوقي جاءك.

قال رفعت مشجعاً. تفرقت سلمى ومروة بين السريرين. مروة ألقت بنفسها فوق عيسى وأخذت في تقبيله. زاغت من يده عندما بدأ في مسح دموعها. استدارت مباشرة إلى سرير رفعت، بينما اتجهت أمها إلى عيسى.

- تعالي يا مرمر، تعالي هنا جنبي.

قال عيسى وقد جعله تهلله فجأة أقل وهناً. وأشار إلى المساحة التي أفسحها لها بجواره. شدت سلمى الكرسي لتكون بينهما تماماً.

كان بيت شوقي وسلمى هو نموذج البيت الذي يفتقده عيسى. معلق هو بسلمى تعلق طفل يتيم بأمه. الوحيدة التي يصارحها بآلام عرف دائماً كيف يخبئها بعيداً عن الرجال، معجباً بذوقها في القراءة وانطباعاتها الصائبة عن أدباء وصحفيين لا تعرفهم. ورغم أنه يبدو قليل الإدراك للتفاصيل الصغيرة، إلا أنه كان يغبط شوقي على الأناقة الملكية التي تعد بها مائدتها وترتب بيتها، أما مروة التي كان يتفنن في ملاعبتها فقد وضع فيها كل شوقه إلى الأمان. كانت تنتظره خلف باب الشقة عندما تسمع سعلته على السلم. تقوده إلى الحمام وتنتظره حتى يخرج مبللاً وفي يده جورباه، تتناولهما منه لتعلقهما في الشرفة، ولا يجرؤ على التقدم خطوة باتجاه أبويها إلا عندما تعود لتصاحبه.

جلستا صامتتين لا تدريان ما تقولانه وكأنهما المسئولتان عن مرض الصديقين. أخذ عيسى يشرح لهما كيف انتبه إلى أن رفعت ليس على ما يرام، وكيف استدعى الممرضة التي نادت بدورها الطبيب المناوب.

– ولد خرع.

قال معرضاً بضعف رفعت ضاحكاً، قبل أن يبدأ في شرح حالته لهما كما أوضحها له الدكتور مصطفى نائب مدير المستشفى. الهيموجلوبين في تحسن، والأورام لم تتم في الأشعات الحديثة، سيجربون الكيماوي أولا. الدكتور متأكد من

استجابة الكبد والرئة، لكن ورم المثانة قد يحتاج إلى جلسات إشعاع لتحجيمه واستئصاله بعد ذلك. كان يواصل حديثه بصعوبة دون أن ينتبه إلى فقاعتي لعاب على جانبي فمه. جذبت مروة منديلاً ورقياً من العلبة فوق الكومودينو وجففت فمه .

مد بوزه متأسياً وأمسك عن الكلام. طبطبت مروة على كتفه محافظة على الصمت الذي أخذه إلى النعاس. لحظة وفتح عينيه كأنه يكمل حديثاً.

- لكن فين شوقي يا سلمى؟

- سنتركه ليستريح.

بألم أخرجت سلمى عبارتها المبللة وهي تصافح رفعت، بينما قبلت مروة عيسى في جبينه وشدت على يد رفعت. وهرولت وراء أمها التي صارت خارج الغرفة.

20

لو أن أحداً يقلمني فأنمو من جديد كشجرة!

هذه الأطراف التي أكاد لا أحس بها، المعصم الأزرق لم أعد حتى أشعر بوخز الإبرة فيه، أشعر فقط بضجر التسرب المنتظم للدم إلى عروقي مثل تسرب المياه من صنبور، أشعر بجريانه في ذراعي التي تتنبه كأغصان يوقظها الربيع. هل أتعافى فعلاً أم أنه إحساس زائف بالحيوية يحمله هذا الدم من حيوية مانحيه؟ هذا الكيس المعلق فوق رأسي لشخص واحد أم لأشخاص متعددين؟ وهل ينقل لي صفات وميول مانحه الذي ربما يكون متبرعاً أو محترفاً فقيراً يبيع دمه؟ رجل أم امرأة

هذا الذي يضخ في عروقي بعضاً من صفاته؟ هيئ! مسخرة! هل سأتعرف على نفسي بعد كل هذا الدم الغريب؟

أنمو من جديد؟! ليس مستحيلاً. لن أكون أول من يعود من هذه الحافة. غداً يبدأ الوحش الذي ينهش أحشائي في الترنح عندما يعلفونه سماً؛ ستتوقف الخلايا عن الانقسام. ستجد نفسها مجبرة على الاستجابة للكيماوي لأنني لست خائفاً. المعنويات نصف العلاج هكذا قالوا، وأنا لست خائفاً. لم أكن خائفاً من قبل. لكن الجديد هو هذا الفرح الذي أحسه. ربما ليس فرحاً تماماً، لعله الفضول! فضول أن أرى نفسي وفي يدي حياة أخرى دون أن أخجل من كوني حياً. ستكون لي حياة جديدة، لا تطاردها فكرة المسئولية عن موت أحد. هذه الفكرة التي جعلتني أخفض رغباتي إلى أدنى حد ممكن. لم أكن أتصور أن حمدي سيقتل نفسه، لا، الحق كانت لديّ بعض شكوك، لكن الفضول دفعني إلى الصمت عن رسالته التي تركها لي في ذلك اليوم وقد نقش فيها كل سوء الفهم والتشويش الذي تلقاه بوصفه طالب فلسفة مبتدئاً اتجه مباشرة إلى التأليف! عباراته محفورة إلى اليوم على صفحة ذاكرتي المتآكلة. "سأنتحر لأنني عرفت الوجود وأتطلع إلى معرفة العدم". ذهب ليتذوق العدم، رغم أنه لم يكن قد تذوق الحياة بعد! المسكين كان يظنها حياة تلك السنوات السبعة عشر التي عشناها في "العش" بأحداثها الفقيرة بين العمل في الحقول صيفاً والذهاب إلى المدرسة شتاء. تركني دون أن يعود ويخبرني بما هنالك كما وعد، أبقاني هنا

على الباب أنتظر. كانت رؤيته معلقاً في سقف الغرفة الريفية مطأطئ الرأس كعود ذرة ذابل كفيلة بجعلي أخمن ماذا وجد هذا الفيلسوف الصغير الشاحب المتدلي في جلبابه البلدي الواسع. أخذت أتعامل مع كل لحظة من حياتي كلقية كافية في ذاتها لإسعادي ومبلبلة في الوقت ذاته بأنها ليست لي، وأنني آخذ ما ليس بحقي. لم أصارع من أجل زيادة الممنوح. كل الذين آذوني أخذت أتخيلهم معلقين في سقوف حجراتهم ينتظرهم مالم يعد منه حمدي، فأشفق عليهم بدلا من أن أكرههم، وهذا هو مالم يعرفه كل من يقولون بأنني أحب أعدائي. لا الذين يعاملونني كأبله ولا الذين يرونني ولياً فهموني.

لن أفعل ذلك بعد. لن أواصل مسخرة الوقوف على الشاطئ. لن يمر توبيخ روز لي دون رد، ولن تبلل سميرا أوراق الخطابات الطويلة، لن تكون مضطرة لفعله معي في غيابي، سأترك نفسي لدفء جسدها، وربما صار لدينا طفل يشبهنا، ويبقى بعدنا كركلة قوية على مؤخرة العدم، في وجوده سأغلق عيني في المرة القادمة سعيداً بهذا الجزء مني الذي تمكنت من تهريبه من العدم. لا.. لن أستند في بقائي على طفل. سأقاوم كل ما سكت عنه حتى الآن. سأكتب ما لم يكتب بعد في رواية أحس تدفق وقائعها في عقلي كحلم واضح، لم تعد تحتاج إلا تعافي يميني هذه.

أغلقت سوسن صنبور المحلول وحررت معصم رفعت. أزاحت الحامل بعيداً. وأخذت تتأمل سريان الدم إلى ذراع عيسى. قامت إلى الثلاجة وأخرجت طبق الكريز.

– ما شاء الله! تبدو شباباً اليوم. وعيسى، هل أكل جيداً في الغداء ؟

سألت رفعت الذي اضطجع، بينما كانت تزيح الكرسي لتجلس بجوار رأس عيسى.

– معقول، لكنه بدأ يتألم، هل ستعطينه الدواء الآن؟

– يكفي ما يعطونه صباحاً.

قالت وهي تهز عيسى. فتح عينيه يتأمل يدها الممدودة بثمرة الكريز، يفتح فمه مباشرة كطفل مطيع. يتلقف الحبة التي أخرجت نواتها ويزدردها سريعاً، إلى أن أشار إليها بيده علامة الاكتفاء.

– مملكة.

قال بصوت يكاد لا يسمع. ناولت رفعت الواقف بجوارها الطبق فوضعه على الطاولة. ومدت يدها تحت عيسى تتحسس حجم البلل في ثيابه.

– هل تريدين مساعدة؟ سأخرج لأمشي رجلي.

قال رفعت. أشارت له بالنفي عندما صار نصفه خارج الغرفة. كانت رئيسة الحكيمات تتغنج في التليفون كما تفعل دائماً، اختلس نظرة إلى صدرها الوافر بينما يواصل حركته بحرص طفل يتعلم المشي. استغرب تنميل ما بين فخذيه

بالرغبة تحت إلحاح صوتها المتخافت كمحلول يتسرب إلى عروقه. تداعى إلى أول كرسي في ركن الزوار الخالي عند المنعطف. أخذ يسلي نفسه بالإنصات محاولاً استكشاف من أي الحجرات تصدر هذه الآهة أو تلك، مستمتعاً بسيجارته كأنها الأخيرة بينما كانت آلام ركبتيه تتقلص تحت إحساس الدفء في الممر الأدفأ من الحجرة.

21

أنا من سيعيدك من هذا النفق. سترجع لأجلي؛ فأنا لم أجد الأجمل منك بعد. خذ خاتمك، أشبكك به مجددًا. ما هذا؟ أصابعك صارت أنحف! سأغذيك حتى يضيق الخاتم على إصبعك في ظرف أسبوع واحد. طوقني بذراعيك، نعم هكذا، استرح الآن، تذكر ما كنت أقول لك عن الرجل الناقص رئيس مجلس الإدارة؟ استدعاني اليوم أيضاً. تخيل! هذا المليونير أكبر المساهمين في المستشفى يشغل نفسه بجمع ملاحظات عن طبيبة صغيرة! دقيقة التأخير يعرفها، الترمومتر الذي انكسر عنده علم به، لا أستبعد أن يكون نصب كاميرا لمراقبتنا في

غرفتك. اليوم قال إنني أقضي وقتاً غير عادي في الغرفة 805، ألمح إلى رفعت وليس إليك!

نمت؟! تعرف أنه لم ينظر إليّ عندما استدعاني، أغمض عينيه وأخفى يديه تحت المكتب وهو يستمع إلى دفاعي عن نفسي، كان يرتعش كلما ارتفع صوت احتجاجي. كل ما قاله عندما فتح عينيه: "أنت دماغك ناشفة، لم أطلب أكثر من صوتك في التليفون"! من أجل ماذا؟ هل أفعل مثل سهام زميلتي أو مثل حليمة رئيسة الممرضات أو غيرهن ممن تفرغن لإرضاء هوايته الغريبة. "هل هذه مسألة صعبة؟" تقول حليمة، تصور! هذه الممرضة التي تستطيع إبعاد أي طبيب من المستشفى لا تستلطفه. "ستعرفين قيمة هذه التسلية فيما بعد، أو بالأحرى سيعرفها رجلك لما ترجعي له ملهلبة".. تصور!

آه صحيح! أشرف أهداني اليوم خاتماً جديداً، ها هو ما رأيك؟ جميل أليس كذلك؟ أشعر بالامتنان له ولكنني لم أتمكن من التخلص منك يا رجل يا عجوز، سأدرب نفسي على أن أحبه معك. هل هذا مستحيل؟! مجنونة أنا، أم أنت المجنون؟ أعرف شيئاً واحداً لا أستطيع أن أسميه؛ هذا الدفء الذي يصلني من جسدك فيجعل السعادة شيئاً ملموساً يحس به جسدي، كيف توصف هذه الخفة اللذيذة؟

بين إغفاءة وأخرى يرفع عيسى طرف عينه مشيراً إليها أنه يتابع حديثها، بينما ينبسط وجهه بابتسامة رضا تحت كفها التي

تحتضن وجهه ولا تكف أصابعها عن تدليك وجنتيه. طرقتان على باب الغرفة دار بعدهما المقبض برفق. أطل رفعت برأسه وأعاد إغلاق الباب متراجعاً. أخذت سوسن تتشمم عيسى بعمق قبل أن تسحب ذراعها الأخرى من تحت رأسه. قامت بهدوء، نبشت البالطو المكوم على سرير رفعت، وبدأت في ارتداء ملابسها بتمهل.

- ادخل.

نادت الواقف بالخارج بعد أن وضعت ذراعها الأولى في البالطو الأبيض. دخل رفعت يختلس النظر إليها وهي تحكم الأزرار الأخيرة. نظر إلى الحبوب المتروكة فوق منديل ورقي على الطاولة.

- هل أعطيها له؟

- لا، هو مستريح هكذا، لن يحتاجها الليلة.

قالت وهي تمسد شعر عيسى المبتسم رغم عينيه المغمضتين.

22

لم أر في حياتي هذا الجلد. لم يتألم ولم يعبر عن أدنى انزعاج وهو يراقب المشرط يشق لحمه. لم يكن من الممكن تخديره. السفلة! كانوا يعرفون أن هذه التداعيات ستحدث وأنه لن يحتمل، ولكنهم يتجاسرون على بيع الوهم دون حياء: "ومن أجل هذا أنشئت المستشفيات".. من أجل خدمة الفاتورة. الغلام الأمرد يريد أن يضاعف ثروة أبيه أم يحاول إرضاء طموحه الأرعن بلا أساس علمي؟ هل كان يعتقد أن بمقدوره تحقيق الشفاء مع هذا القدر من انتشار المرض؟ وأنا مطلوب مني أن أنسى ما أعرفه، أن أخالف ما أعلِّمه يومياً لطلابي. أغمض عينيّ وأمتثل دائما لقرار الغلام: فرص العلاج كبيرة!

أهرب من مواجهة اللصوص في المستشفيات العامة لأجدهم في الاستثمارية! هل كتب عليّ أن أشهد تدهور المرضى أمام عيني، هناك لقلة العلاج وهنا لكثرته؟! لم يكن جسد عيسى يحتمل الكيماوي. الولد الأمرد يعرف هذا إن كان قد تخرج حقاً في كلية للطب، وليس في الأكاديمية الإجرامية لأبيه سمسار السلاح. الجرعة الأولى ضربت الكليتين. القسطرة ستريحه، لكن البولينا سترتفع وتصيب الكبد بالشلل هو الآخر بعد اثنتي عشرة ساعة على الأكثر.

خلف الترولي الذي عاد بعيسى دخل الدكتور أحمد في الزي الأخضر لغرفة العمليات، أخذ يوجه ممرضتين أعادتاه إلى سريره متأملاً الأنبوب المتدلي يتقاطر منه الدم الوردي إلى كيس أراحتاه بجواره. بدأت إحداهما سحب ملاءة العمليات الخضراء من فوق عيسى بحرص وهي تخلصها من البالطو الورقي الذي أخذت تحكمه لتخفي فخذيه. فردت الأخرى البطانية فوقه وانصرفتا تدفعان أمامهما الترولي إلى خارج الغرفة. وقف الدكتور أحمد يتأمل حركة تنفس عيسى الخافت، ثم أشار إلى رفعت.

- أريدك قليلاً في مكتبي.

وتقدمه إلى مكتبه الذي عرف رفعت للمرة الأولى أنه بهذا القرب من الغرفة. جلس خلف المكتب، وجلس رفعت بأحد المقعدين الملاصقين، ينظر دون تركيز في منفضة السجائر،

يتأمل أعقابها، بعضها يحمل آثار روج، راحت عيناه تفرزان الأعقاب التي تنتمي لمدخن ذكر من تلك التي تخص أنثى.

- ولعها.

قال الطبيب بعد أن أشعل سيجارته، وقذف بواحدة تجاه رفعت دون أن ينظر إليه. فتح درج مكتبه متظاهراً بالبحث عن شئ ما. كان يبحث عن بداية للكلام. اعتدل فجأة وقد أحس بأنه عثر على واحدة مناسبة.

- أنت روائي، أليس كذلك؟

أومأ رفعت موافقاً.

- رأيت صورك مراراً في الصحف، كنت أقرأ كثيراً عندما كنت طالباً، لكن المشاغل.

- الناس لم تعد تقرا حتى الصحف، لم تعد لديها ثقة في شئ.

- شفت؟! أنت كاتب وعارف، لو أحكي لك عن الفظائع، فقط في مستشفى كهذا!

تناول رفعت المتبقي من السيجارة المتعلقة بحافة المنفضة فانهار رمادها الهش المتلوي بالقاع كثعبان متحلل. جذب نفساً عميقاً وسحق العقب بعصبية. وأعفته سعلة حادة من مواصلة حوار مؤلم. بينما وصل الدكتور أحمد إلى الجملة التي بدت الهدف النهائي من الحوار:

- أريد أن أعتذر لك عن الخشونة التي تعاملت بها معكم.

وأفلتت دمعة من عينه. وقف رفعت ودار حول المكتب حتى صار بجواره. وقف هو الآخر وعانقه. أجهش رفعت مثل طفل مختطف ينهار في أول لحظة يبلغ فيها الأمان.

- ربنا معك؟

قال وهو يشد على يديّ رفعت الذي مضى متحاشياً النظر في عينيه من جديد.

23

أجدف داخل نفسي فأنزلق صاعداً كسمكة. أخرج من جسدي كما تخرج الصورة من سطح المرآة. أرفرف خفيفاً بيدي ورجلي فأرتفع، أحاول اختبار قدرتي على التحكم بنفسي فأدوّم هابطاً. أفرح بتأكدي من قدرتي على النزول فأواصل حتى أكاد ألامس رؤوسهم. أبدأ في التحليق من جديد.. أحس توتر الخيط الشفاف الهش الذي يربطني بجسدي المتروك هناك بين أيديهم فاخفف من الرفرفة هابطاً حتى يخف توتر الخيط. أتوقف عند هذا الحد متسلياً بتلاعب الهواء. أشعر بلذة صعبة التعيين، أحسها في تسرب الغائط والبول الدامي الذي أستمع إلى خريره الضعيف من جسدي الملقى. سوسن تواصل تنظيفي. يدغدغني دفء يديها بالقطنة تحت إليتي. "فقد السيطرة تماماً على الغائط يا رفعت": تقول روز بإشفاق لا يخفي ما وراءه

من شماتة. تدمع عينا صديقي الذي يقول شيئاً لا أسمعه لأن الهواء حملني بعيداً فآلمني الخيط بقدر ما خشيت انقطاعه. أرفرف هابطاً ومقترباً بحذر حتى يخف ألم الخيط المتوتر. لا أستطيع أن أشير إليهم كي يخرجوا روز المتأففة. أحاول توجيه ذراعي الثقيلة جداً كي تكفكف خصلة سوسن المنهمكة في مسح الدم الذي فاض من فمي. الذراع ثقيلة مثل صخرة، لم تعد تستجيب لي. سوسن هي التي مدت يدها بسهولة تملس على جبيني، وطبطب رفعت على صدري. "هيا يا روز". حسناً فعل رفعت الذي أدرك من النور الواهن في عيني مدى ضيقي. لا تزال عيني قادرة على نقل رغباتي. يخرج معها رفعت ويتركني مع سوسن. تفسح لنفسها مكاناً بجواري. ستبلل البالطو! لا إنها تخلعه. جلدي لا يزال يشعر بالنشوة من ملامسة الجسد الدافئ. سقف الغرفة يتلاشى، يتواصل ارتفاعي. الخيط لم يعد يؤلمني ولم أعد أخشى انقطاعه. لم يعد جسدي المستلقي مؤلماً. لم يعد يشعر حتى بوخز العشب على الكثيب وسط النهر، لا أحس سوى رعشة برودة تنتابه كلما اختفت الشمس بين كتلة من الأشجار. يبدأ وخز خفيف في جنبي لا يكاد يحس وجسمي ينمل. أحاول أن أنبه سميرا إلى النمل الذي زحف يملأ الكوفرتة ولا أستطيع. لو تنتبه وترد جيوش النمل عن جسمي الثقيل! لو تقطع هذه الأطراف الثقيلة التي لا تستطيع احتضانها بما فوقها من نمل وتلقي بها في ماء النهر البارد! لكنها تبدو مذهولة عن كل شيء. وجهها لصق وجهي. نظرتها متجمدة على عيني الزجاجيتين.

صدر للكاتب

- **حدث في بلاد التراب والطين** (حكايات وتصاوير) ــ دار سعاد الصباح ــ 1992
- **مدينة اللذة** (رواية) ــ الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة ــ 1997
- **مواقيت البهجة** (قصص) ــ الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة ــ 2000
- **الأيك.. في المباهج والأحزان** (نصوص) ــ كتاب الهلال ــ 2002

